حتى أقعده ذلك عن التدبير لأموره. هذا مع أنه ممتاز على بني العباس قاطبة بأنه هاشمي الأبوين ولكن ليس بحسن الأنساب تعلو الرجال وإنما علوها بحسن الفعال.

٧ ـ المأمون

هو عبد اللّه المأمون بن هارون الرشيد بن محمد المهدي. وأمه أم ولد اسمها مراجل ولد (سنة ١٧٠) في اليوم الذي ولي فيه أبوه الخلافة. وولاه أبوه العهد وسنه (١٣ سنة) بعد أخيه الأمين وضمه إلى جعفر بن يحيى وولاه خراسان وما يتصل بها إلى همذان ومنحه بمقتضى الشروط التي عقدها استقلالاً يكاد يكون تاماً؛ ولما توفي أبوه لم يف له أخوه بعده بل أراد أن يقدم عليه في ولاية العهد ابنه موسى فأبى ذلك المأمون وكان من وراء ذلك الحرب الفظيعة التي قصصنا خبرها وهي التي انتهت بقتل الأمين في (٢٥) محرم (سنة ١٩٨) (٥ سبتمبر سنة ٨١٣).

بويع المأمون بالخلافة العامة في ذلك التاريخ واستمر خليفة إلى أن توفي غازياً بطرسوس في (١٩) رجب (سنة ٢١٨) (١٠ أغسطس سنة ٨٣٢) فكانت خلافته عشرين سنة وخمسة أشهر وثلاثة أيام. أقام منها ببلاد خراسان من تاريخ ولايته إلى منتصف صفر (سنة ٢٠٤) وهو تاريخ قدومه بغداد وأقام الباقي ببغداد حاضرة الخلافة العباسية وكان يعاصره في بلاد الأندلس الحكم بن هشام ثالث أمراء بني أمية (١٨٠ ـ ٢٠٦) ثم ابنه عبد الرحمٰن الثاني (٢٠٦ ـ ٢٣٨).

ويعاصره في بلاد المغرب الأقصى إدريس بن إدريس بن عبد اللّه سنة (١٨٨ ـ ٢١٣) ثم ابنه محمد بن إدريس (٢١٣ ـ ٢٣١).

ويعاصره في إفريقية من بني الأغلب عبد اللّه بن إبراهيم بن الأغلب (١٩٦ ـ ٢٠١) ثم ابنه زيادة اللّه بن إبراهيم فاتح صقلية (٢٠١ ـ ٢٢٣).

ويعاصره في فرنسا شارلمان صديق أبيه وقد توفي سنة (٨١٤) ثم لويز الأول الملقب باللين.

ويعاصره في القسطنطينية ليون الأرمني (٨١٣ ـ ٨٢٠) ثم ميخائيل الثاني الملقب بالتام ثاني مرة (٨٢٠ ـ ٨٢٩) ثم ابنه توفيل (٨٢٩ ـ ٨٤٢).

الأحوال في المدة الأولى:

لما تم الأمر للمأمون بالعراق على يد القائدين العظيمين طاهر بن الحسين وهرثمة بن أعين كان الذي يدير الأمر بمرو الفضل بن سهل الذي يرى لنفسه الفضل الأكبر في تأسيس دولة المأمون فأراد أن يستفيد من هذه الدولة فيستأثر بنفوذ الكلمة فيها وليس يتم له ذلك والعراق بين يدي طاهر وهرثمة فأصدر أمرين على لسان المأمون أولهما بتولية الحسن بن سهل جميع ما افتتحه طاهر من

كور الجبال وفارس والأهواز والبصرة والكوفة والحجاز واليمن. وكتب إلى طاهر أن يسلمه جميع ما بيده من الأعمال وأن يشخص إلى الرقة لمحاربة نصر بن شبث وولاه الموصل والجزيرة والشام والمغرب فلم يسع طاهراً إلا أن يسمع ويطيع فسلم ذلك كله.

والأمر الثاني إلى هرثمة يأمره بالشخوص إلى خراسان فشخص - وبذلك خلا العراق من أسديه وأهل العراق من قديم عبيد القوة ولا سيما أنهم خارجون من ثورة وهيجان فكان من اللازم أن تظل تلك الأيدي المرهوبة حتى يمتكين الناس ويخضعوا.

ولم يبق المأمون بعد ذلك بخراسان. هل كان الفضل بن سهل يريد أن يحول الخلافة الإسلامية إلى مرو فيجعلها حاضرة البلاد الإسلامية أو رأى أن نفوذه يضعف إذا حل الخليفة بغداد وبها الألسنة التي لا تمل الوشايات فخشي من ذلك على مركزه سواء كان السبب في تخلفه هذا أو ذاك فقد نتج عن هذا التدبير مضار شديدة واضطرابات كادت ترجع ملك المأمون أثراً بعد عين؟

شاع بالعراق بعد خروج طاهر وولاية الحسن بن سهل أن الفضل بن سهل قد غلب على المأمون وأنزله قصراً حجبه فيه عن أهل بيته ووجوه قواده وأنه يبرم الأمور على هواه فغضب لذلك من كان بالعراق من بني هاشم ووجوه الناس وأنفوا من غلبة الفضل على المأمون واستخفوا بالحسن بن سهل وهاجت الفتن في الأمصار وأول فتنة كانت خروج محمد بن إبراهيم بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن بن الحسن بن علي خرج بالكوفة وقام بأمر رجل كبير من رجال هرثمة بن أعين وهو أبو السرايا السري بن منصور الشيباني فاستولى على الكوفة من يد نائب عاملها سليمان بن أبي جعفر المنصور فأرسل إليه الحسن بن سهل جيشاً يقوده زهير بن المسيب عشرة آلاف فهزمه أبو السرايا واستباح عسكره وأخذ ما كان معه من مال وسلاح ودواب وفي غد ذلك اليوم مات محمد بن إبراهيم فجأة وذلك يوم الخميس أول رجب (سنة ١٩٩) فولى أبو السرايا بدله غلاماً أمرد حدثاً وهو محمد بن محمد بن زيد بن علي بن الحسين بن علي وكان أبو السرايا هو الذي ينفذ الأمور ويولي من رأى ويعزل من شاء وإليه الأمور كلها.

أرسل الحسن جيشاً ثانياً بقيادة عبدوس بن محمد بن أبي خالد المروروذي فتوجه إليه أبو السرايا وأوقع به وقعة في (١٧ رجب سنة ١٩٩) فقتله وأسر أخاه هارون واستباح عسكره وكانوا نحو أربعة آلاف رجل فلم يفلت منهم أحد.

انتشر بعد ذلك الطالبيون في البلاد وضرب أبو السرايا الدراهم بالكوفة ونقش عليها **﴿إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص﴾**[1].

(١) سورة: الصف، الآية: ٤.

أفاق الحسن بن سهل من غفلته لما وجد قواده لا يغنون عنه شيئاً وكلما وجه أحدهم لحرب أبي السرايا عاد مهزوماً فوجه فكرته إلى هرثمة بن أعين مفضلاً إياه على طاهر بن الحسين وكان هرثمة قد توجه إلى خراسان مغاضباً للحسن بن سهل وكان قد وصل حلوان فبعث إليه يسأله الانصراف إلى بغداد لحرب أبي السرايا فأبى فأعاد عليه الرسالة متلطفاً فأجاب وانصرف إلى بغداد فقدمها في شعبان (سنة ١٩٩) وتهيأ للخروج إلى الكوفة وتهيأ معه جند اختاره فمر على المدائن واستولى عليها من يد عمال أبي السرايا ثم التقى الفريقان عند قصر ابن هبيرة فقتل من أصحاب أبي السرايا مقتلة عظيمة. ثم ألح عليه هرثمة بالحرب حتى لم يعد قادراً على حماية الكوفة التي هي قاعدة أعماله فهرب عنها هو ومن معه من الطالبيين وسار إلى القادسية في محرم (سنة ٢٠٠) ودخل هرثمة الكوفة وأمن أهلها ولم يعرض لأحد منهم ثم بارحها مساء ذلك اليوم.

وترك أبو السرايا مكانه بالقادسية وسار حتى أتى السوس من بلاد فارس فلقيه هناك الحسن بن علي الباذغيسي المعروف بالمأمون فقتله وهزمه واستباح عسكره وجرح أبو السرايا جراحاً شديدة فهرب مريداً منزله برأس العين من الجزيرة فعثر به في الطريق هو ومن معه وجيء بهم إلى الحسن بن سهل وكان مقيماً بالنهروان فضرب عنقه، وصلب جسده ببغداد. وكان بين خروجه بالكوفة ومقتله عشرة أشهر.

ثم أخذت البصرة من يد عاملها لأبي السرايا وهو زيد بن موسى بن جعفر وكان يقال له زيد النار لكثرة ما أحرق من دور البصرة. وكان إذا أتي برجل من المسودة كانت عقوبته عنده أن يحرق بالنار فأخذ أسيراً وأمن.

وكان للطالبيين في تلك الفتن أسوأ أثر بمكة والمدينة فإن أبا السرايا كان قد ولى مكة حسين بن حسن بن علي بن الحسين بن علي وكان بها داوود بن عيسى بن موسى العباسي والياً فلم يرض القتال في الحرم وخرج عن مكة فدخلها الحسين قبل مغرب يوم عرفة ولما تفرق الحاج من مكة جلس خلف المقام على نمرقة مثنية فأمر بثياب الكعبة التي عليها فجردت حتى لم يبق عليها من كسوتها شيئاً ثم كساها ثوبين من خز رقيق كان أبو السرايا وجه بهما معه مكتوب عليهما (أمر به الأصفر بن أبي الأصفر أبو السرايا داعية آل محمد لكسوة بيت اللّه الحرام وأن يطرح عنه كسوة الظلمة من ولد العباس ليطهر من كسوتهم وكتب سنة ١٩٩) ثم قسم الكسوة التي كانت على الكعبة بين أصحابه وعمد إلى ما في خزانة الكعبة من مال فأخذه ولم يسمع بوديعة عند أحد لبني العباس وأتباعهم إلا هجم عليه في داره فإن وجد من ذلك شيئاً أخذه وعاقب الرجل وإن لم يجد عنده شيئاً حبسه وعذبه حتى يفتدي نفسه بقدر طوله ويقر عنده الشهود أن ذلك للمسودة من بني العباس وأتباعهم حتى عم ذلك خلقاً كثيراً وكان لهم دار اسمها دار العذاب يعذب فيها الناس حتى

هرب منهم خلق كثير من أهل النعم فيتبعوهم بهدم دورهم وجعلوا يحكون الذهب الرقيق الذي في رؤوس أساطين المسجد فيخرج من الأسطوانة بعد التعب الشديد قدر مثقال ذهب أو نحوه حتى عم ذلك أكثر أساطين المسجد الحرام وقلعوا الحديد الذي على شبابيك زمزم وخشب الساج فبيع بالثمن الخسيس.

وما زالوا على تلك الحال حتى بلغهم قتل أبي السرايا وأن من بالكوفة والعراق من الطالبيين قد طردوا فاجتمعوا إلى محمد بن جعفر الصادق وكان شيخاً وادعاً محبباً في الناس مفارقاً لما عليه أكثر أهل بيته من قبح السيرة وكان يروي العلم عن أبيه وطلبوا إليه أن يبرز شخصه ليبايعوه بالخلافة فأجاب بعد تردد وحشر إليه الناس فبايعوه طوعاً وكرهاً وسموه أمير المؤمنين فأقام على ذلك أشهراً وليس له من الأمر إلا اسمه. وابنه علي وحسين بن حسن أسوأ ما كانوا سيرة وأقبح ما كانوا فعلاً حتى تعدوا الأموال إلى الأعراض.

أراد اللّه أن يفرج عن أهل مكة ما هم فيه فقدم عليهم إسحاق بن موسى بن عيسى مقبلاً من اليمن فقاتل العلويين أياماً ثم بارح مكة فلقيه البعث الذي أرسله هرثمة لتخليص مكة فعاد معهم وكان رئيس البعث ورقاء بن جميع فقاتلوا العلويين حتى هزموهم وطلب محمد بن جعفر الأمان له ولمن معه حتى يخرجوا من مكة ويذهبوا حيث شاءوا فأجيبوا وأمهلوا ثلاثة أيام فلما انتهت دخلت الجنود العباسية مكة وذهب كل فريق من العلويين إلى ناحية.

أما في اليمن فكان قد خرج فيها إبراهيم بن موسى بن جعفر وكان واليها إسحاق بن موسى بن عيسى فلما سمع بإقبال إبراهيم ترك له صنعاء وانصرف مقلداً عمه داوود بن عيسى في مكة فاستولى إبراهيم على اليمن وكان يقال له الجزار لكثرة من قتل باليمن من الناس. وفي موسم (سنة ٢٠٠) وجه بعض ولد عقيل بن أبي طالب من اليمن في جند كثيف ليحج بالناس وكان الذي ولي إمرة الحج من العباسيين أبا إسحاق بن الرشيد ومعه كثير من القواد فلما وصل العقيلي إلى بستان ابن عامر بلغه أمر من بمكة فتوقف بالبستان فمرت به قافلة من الحاج والتجار وفيها كسوة الكعبة وطيبها فأخذ أموال التجار وكسوة الكعبة وطيبها وقدم الحاج مكة عراة مسلبين بلغ أبا إسحاق أمر العقيلي فأرسل إليه أحد قواده فلقيه بالبستان فأسر أكثر من معه وهرب من هرب منهم يسعى على قدميه ورد إلى الحاج ما كان أخذ منهم وعاد بكسوة الكعبة ثم عاقب كلاً من هؤلاء الأسرى بعشرة أسواط وخلاهم فذهبوا يستطعمون الناس في الطريق حتى هلك أكثرهم جوعاً.

انتهت هذه الفتن العلوية التي عادت بالضرر على البلاد والعباد والفضل في انتهاء أمرها لهرثمة بن أعين القائد المحنك. ولما فرغ هرثمة من أداء تلك المهمة أراد أن يتوجه إلى المأمون

بمرو ليطلعه على حقيقة الحال وما ينكره الناس عليه من استبداد الفضل بن سهل على أمره ولم يكن مما يروق في عين الفضل فأفهم المأمون أن هرثمة قد أفسد البلاد وأنه هو الذي دس إلى أبي السرايا حتى صنع ما صنع ولو شاء أن لا يفعل ذلك أبو السرايا ما فعل لأنه كان من ضمن جنوده. وكان المأمون قد كتب لهرثمة كتاباً من الطريق ليرجع ويلي الشام والحجاز فأبى هرثمة أن يرجع حتى يرى أمير المؤمنين ويبين له حقيقة الحال فكان ذلك مما زاد المأمون وحشة منه. ولما بلغ هرثمة مرو خشي أن يكتم المأمون خبر قدومه فضرب الطبول كي يسمعها المأمون فلما سمعها سأل فقالوا هرثمة جاء يبرق ويرعد وظن هرثمة أن قوله المقبول فأدخل على المأمون وقد أشرب قلبه منه ما أشرب فلم يسمع منه كلمة وأمر به فوجىء عنقه وديس بطنه وسحب بين يديه وقد تقدم الفضل إلى الأعوان بالتغليظ عليه والتشديد فمكث في حبسه أياماً ثم دسوا إليه فقتلوه وقالوا إنه مات. هكذا ذهب القائد العظيم من غير جناية ضحية خبث البطانة.

ولما بلغ أهل بغداد ما صنع بهرثمة هاج الجند الحربية بها وثاروا على الحسن بن سهل فأخرجوا ولاته من بغداد واستخفوا بأمر المأمون ولم يكن عند الحسن ما يقدر به على عمل لضعفه وسوء رأيه. ثم عمد أهل بغداد إلى منصور بن المهدي وطلبوا إليه أن يبايعوه بالخلافة ويخلعوا المأمون فأبى ذلك عليهم فطلبوا إليه أن يكون عليهم أميراً وأن يدعو للمأمون وقالوا: لا نرضى بالمجوسي الحسن بن سهل ونطرده حتى يرجع إلى خراسان فقبل وتولى أمر بغداد إلا أنها على كل حال كانت خالية من جيش قوي يأخذ على أيدي المفسدين من أهلها فنتج عن ذلك الفساد الشديد فإن فساق الحربية والشطار الذين كانوا بها وبالكرخ آذوا الناس أذى شديداً وأظهروا الفسق وقطع الطريق وأخذ الغلمان والنساء علانية من الطريق وكانوا يسألون الرجل أن يقرضهم أو يصلهم فلا يقدر على الامتناع وكانوا يجتمعون فيأتون القرى فيكاثرون أهلها ويأخذون ما قدروا عليه من متاع ومال وغير ذلك لا سلطان يمنعهم لأن السلطان كان يعتز بهم وكانوا بطانته فلا يقدر أن يمنعهم من فسق يرتكبونه وكانوا يجبون المارة في الطريق والسفن وعلى الظهر ويخفرون البساتين ويقطعون الطرق علانية ولا أحد يعدو عليهم! رأى الناس شدة هذه البلاء وضعف السلطان عن حمايتهم فقام صلحاء كل ربض وكل درب فمشى بعضهم إلى بعض وقالوا إنما في الدرب الفاسق والفاسقان إلى العشرة وقد غلبوكم وأنتم أكثر منهم فلو اجتمعتم حتى يكون أمركم واحداً لقمعتم هؤلاء الفساق. فقام رجل من ناحية طريق الأنبار اسمه خالد الدريوش فدعا جيرانه وأهل محلته إلى أن يعاونوه على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فأجابوه إلى ذلك وشد على من يليه من الفساق والشطار فمنعهم مما كانوا يصنعون فامتنعوا عليه فقاتلهم وهزمهم وأخذ بعضهم فضربهم وحبسهم ورفعهم إلى السلطان وكان لا يرى من حقه الاعتداء على السلطان. ثم قام من بعده آخر

اسمه سهل بن سلامة الأنصاري فدعا الناس إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وعلق مصحفاً في عنقه ثم بدأ بأهل جيرانه ومحلته فأمرهم ونهاهم فقبلوا منه ثم دعا الناس جميعاً إلى ذلك الشريف منهم والوضيع بني هاشم ومن دونهم وجعل له ديواناً يثبت فيه من أتاه منهم فبايعه على ذلك خلق كثير ثم طاف بغداد وأسواقها وأرباضها ودروبها وطرقها ومنع كل من يخفر ويجبي المارة وقال: لا خفارة في الإسلام ـ والخفارة أن يأتي الرجل بعض أصحاب البساتين فيقول: بستانك في خفري أدفع عنه من أراده بسوء ولي في عنقك كل شهر كذا وكذا درهماً فيعطيه ذلك شاء أم أبى.

لم يكن سهل والدريوش على وفاق لأن مقصد الدريوش كان معاونة السلطان في القبض على أيدي المفسدين ولا يعيب عليه شيئاً ولا يقاتله ولا يأمره بشيء ولا ينهاه أما سهل فيظهر أنه كان ذا أطماع قال: إني أقاتل من خالف الكتاب والسنة سلطاناً كان أو سوقة فقد جعل نفسه بذلك فوق الجميع وكثرت أتباعه حتى خافه الولاة وخافه منصور المهدي الذي أقامه العراقيون أميراً.

ونحن نرى أن عمل هذين الرجلين وتكوين هذه الجمعية من أحسن ما يفكر فيه العقلاء في مثل ظروفهم لأن ذلك منع من وجود الفتنة الأهلية التي تقارن هذه المفاسد عادة.

كل ذلك كان والمأمون في مرو لا يصل إليه شيء من أخبار حاضرة الخلافة وقد حجبه الفضل بن سهل فلا يوصل إليه ما يشتهي.

ومما كان في تلك الآونة أن المأمون اختار لولاية عهده علياً الرضا بن موسى بن جعفر الصادق وهو الثامن من أئمة الشيعة الإمامية الاثنا عشرية وسماه الرضا من آل محمد وأمر جنده بطرح السواد شعار العباسيين ولبس ثياب الخضرة الذي اختاره شعاراً للدولة الجديدة وكتب بذلك إلى الآفاق ويغلب على الظن أن هذا من عمل الفضل بن سهل لأن الفرس يعجبهم أن يكون إمام المسلمين علوياً وطالما قاتلوا في سبيل رجوع السلطان إلى بني علي وهذه فرصة يأخذون فيها الخلافة من غير حرب ولا قتال وساعد على ذلك ما كان يراه المأمون نفسه من تفضيل علي على غيره من الخلفاء الراشدين وأنه كان أحق بالخلافة منهم ولا نرى ذلك جاء المأمون إلا من البيئة التي تربى فيها فإنه كان في أول أمره في حجر جعفر البرمكي ثم انتقل إلى الفضل بن سهل وكلهم ممن يتشيع فاختمرت عنده هذه الفكرة على غير ما كان عليه آباؤه.

بلغ ذلك أهل بغداد فاختلفوا فقال بعضهم: نبايع ونلبس الخضرة وقال بعضهم: لا نبايع ولا نلبس الخضرة ولا نخرج هذا الأمر من ولد العباس وإنما هذا دسيس من الفضل بن سهل فمكثوا على ذلك أياماً وغضب ولد العباس من ذلك واجتمع بعضهم إلى بعض وتكلموا فيه وقالوا: نولي بعضنا ونخلع المأمون واتفقوا أخيراً على مبايعة إبراهيم المهدي عم المأمون

بالخلافة وخلعوا المأمون وكان ذلك في أول المحرم (سنة ٢٠٢) فتغلب إبراهيم مع أهل بغداد على الكوفة والسواد كله وعسكر بالمدائن وولى الجانب الشرقي من بغداد العباس بن الهادي والجانب الغربي إسحاق بن الهادي وتغلب على سهل بن سلامة المتطوع بعد أن تركه من معه.

بلغت هذه الأحوال المأمون ويقال إن الذي أبلغه إياها علي الرضا ولي عهده فإنه أخبره بما فيه الناس من الفتنة والقتال منذ قتل أخوه وبما كان الفضل بن سهل يستر عنه من الأخبار وأن أهل بيته قد نقموا عليه أشياء فبايعوا لإبراهيم بن المهدي بالخلافة ـ فقال له المأمون: إنما بايعوه ليكون أميراً لهم يقوم بأمرهم على ما أخبره به الفضل ـ فأعلمه أن الفضل قد كذبه وغشه وأن الحرب قائمة بين إبراهيم بن المهدي والحسن بن سهل وأن الناس ينقمون عليه مكانه ومكان أخيه ومكاني ومكان بيعتك لي من بعدك وسمى له عدة من القواد يشهدون بما قال فأحضرهم المأمون وسألهم فأخبروه بالخبر على وجهه بعد أن أعطاهم أماناً من الفضل بن سهل وأخبروه بما موّه عليه الفضل في أمر هرثمة وأن هرثمة إنما جاء ناصحاً ليبين له ما يعمل وأنه إن لم يتدارك الأمر خرجت الخلافة منه ومن أهل بيته وأن الفضل دس إلى هرثمة من قتله وأن طاهر بن الحسين قد أبلى في طاعته ما أبلى حتى إذا وطأ الأمر أخرج من ذلك كله وصير في زاوية من الأرض بالرقة قد حظرت عليه الأموال حتى ضعف أمره فشغب عليه جنده وأنه لو كان على خلافتك ببغداد لضبط الملك ولم يجترأ عليه بمثل ما اجترىء به على الحسن بن سهل وأن الدنيا قد تفتقت من أقطارها وسألوا المأمون الخروج إلى بغداد فإن بني هاشم والموالي والقواد والجنود لو رأوك سكنوا وفاءوا بالطاعة لك.

فما تحقق ذلك المأمون أمر بالرحيل إلى بغداد ولم يسلم هؤلاء القواد من شر الفضل بل عاقبهم بالحبس والطرد فراح علي الرضا إلى المأمون وأعلمه بما كان من ضمانه لهم فأعلمه أنه يداري ما هو فيه.

ارتحل المأمون من مرو حتى سرخس وهناك شد قوم على الفضل بن سهل وهو في الحمام فضربوه بسيوفهم حتى مات وذلك في (٢ شعبان سنة ٢٠٢) فأخذ ضاربوه وهم أربعة من خدم المأمون فلما جيء بهم إليه قالوا: أنت أمرتنا بقتله فأمر بهم فضربت أعناقهم. وسوابق العلة تؤكد أن صدورها كان بتدبير المأمون لأنه أحس بثقل يد الفضل عليه وبما كان من غشه له وأنه ما دام معه لا يرى من أهل بغداد طاعة فاحتال بهؤلاء الخدم ثم قتلهم وبعث برؤوسهم إلى الحسن بن سهل وعزاه وأخبره أنه صيره مكانه.

رحل المأمون من سرخس يوم عيد الفطر وكان هذا الرحيل سبباً لاختلاف القواد ببغداد على إبراهيم بن المهدي لأن السبب الذي من أجله خلعوا المأمون قد زال فاضطرب أمر إبراهيم ببغداد.

لما صار المأمون بطوس حدثت حادثة أخرى وهي وفاة علي الرضا ويتهمون المأمون بأنه سمه وليس عندنا من البراهين ما يؤكد هذه التهمة لأنه بقدر ما يقربها إرادة المأمون التقرب إلى أهل بغداد والعباسيين بالتخلص منه يبعدها ما كان مغروساً في نفس المأمون من محبة آل أبي طالب وأنه صاهر علياً وأن علياً هو الذي أظهر له حقيقة ما كان يدور بالعراق من الفتن ولا يبعد عندي أنه من فعل بعض البطانة المأمونية ليخففوا عن المأمون اضطراب العباسيين ويخلصوا مما يعتقدونه شراً وهو خروج الخلافة من آل العباس. وهناك كتب المأمون إلى بني العباس والموالي وأهل بغداد يعلمهم موت علي بن موسى.

وحل المأمون من طوس إلى الري وهناك تحبب إلى أهلها بإسقاط ألفي ألف درهم من خراجها. وكان كلما قرب من بغداد زاد الاضطراب على إبراهيم بن المهدي وقام القواد في وجهه حتى كتبوا إلى قائد من قواد الحسن بن سهل يطلبون إليه الحضور ليسلموا إليه بغداد فلم يلبث أن حضر وسلم له جند بغداد المدينة وأعلن خلع إبراهيم بن المهدي والدعوة للمأمون فاختفى إبراهيم ليلة الأربعاء (١٧ ذي الحجة سنة ٢٠٣) فكانت أيامه كلها ببغداد سنة واحدة وأحد عشر شهراً واثني عشر يوماً.

ما زال المأمون ينتقل من منزلة إلى منزلة حتى وصل النهروان وهناك خرج إليه أهل بيته والقواد ووجوه الناس فسلموا عليه ووافاه طاهر بن الحسين من الرقة لأنه أمره بذلك وفي يوم السبت لأربع عشر بقيت من صفر (سنة ٢٠٤) دخل مدينة بغداد في لباسه ولباس أهله الخضرة أقبيتهم وقلانسهم وأعلامهم فلبس ذلك أهل بغداد وبنو هاشم أجمعون. ومكثوا على ذلك ثمانية أيام فتكلم في ذلك بنو هاشم وولده العباس خاصة وقالوا: يا أمير المؤمنين تركت لباس آبائك وأهل بيتك ودولتك ولبست الخضرة وكتب إليه في ذلك قواد أهل خراسان وسأله طاهر بن الحسين أن يرجع إلى لبس السواد فلما رأى المأمون طاعة الناس له في لبس الخضرة وكراهتهم لها قعد لهم وعليه ثياب خضر فلما اجتمعوا عنده دعا بسواد فلبسه ودعا بخلعة سواد فألبسها طاهراً ثم دعا بعدة من قواده فألبسهم أقبية وقلانس سوداً فلما خرجوا من عنده وعليهم السواد طرح سائر القواد والجند لبس الخضرة ولبسوا السواد وابتدأ من ذلك الوقت ملك المأمون الحقيقي.

المأمون ببغداد:

أشرقت شمس أبي العباس عبد اللّه المأمون بغداد حاضرة آبائه ومن ذلك الوقت ابتدأ ملكه الحقيقي وتجلت مزاياه العالية وأخلاقه التي لم يشابهه فيها أحد من أهل بيته وساس الأمة سياسة لين لا يشوبه ضعف وقوة لا يشوبها عنف وأخذت بغداد تستعيد نضرتها التي كانت لها في عهد أبيه وعظمت بها الحركة العلمية لما كان من ميل المأمون الشديد إلى تقوية تلك الحركة وسنبين ذلك

في فصل خاص إن شاء اللّه بعد أن ننتهي من بيان الحالة الداخلية.

الوزارة في عهد المأمون:

أول وزراء المأمون الفضل بن سهل وهو فارسي الأصل أسلم على يد المأمون (سنة ١٩٠) ويقال إن أباه سهلاً أسلم على يد المهدي والذي اختار الفضل للمأمون هو الرشيد بإشارة جعفر بن يحيى فكان مدبر أمره وهو ولي عهده ولما فعل الأمين ما فعل دبر الفضل أمر إرسال الجنود وتدبير ما يلزمهم فأرسل طاهر بن الحسين لمحاربة علي بن عيسى بن ماهان. ولما انتصر طاهر لقب الفضل ذا الرياستين وجعل له علماً على سنان ذي شعبتين وكتب على سيفه من جانب رياسة الحرب ومن الجانب الآخر رياسة التدبير وولاه المأمون في هذه السنة وهي (سنة ١٩٦) على المشرق كله وجعل عمالته ثلاثة آلاف ألف درهم (نحو ستين ألف جنيه).

ولما تم للمأمون النصر بتدبيره استولى عليه حتى ضايقه ولما كان من أمر أهل بغداد ما كان دبر المأمون عليه بسرخس من قتله وكان الفضل يتشيع حتى حمل المأمون على بيعة علي الرضا بولاية العهد من بعده فجنى بذلك على نفسه وعلى علي الرضا من بعده وكان الفضل بن سهل مولعاً بالنظر في النجوم ويقال إن له إصابات كثيرة في أمور أنبأ عنها قبل موقعها وجميع ما دبره في أمر المأمون مع أخيه يدل على فكر سديد ورأي محكم وكان مع ذلك جيد الكتابة حسن القول سخي اليد وقد مدحه كثير من شعراء عصره.

استوزر المأمون بعد وفاة الفضل بن سهل أحمد بن أبي خالد وأصله شامي مولى لبني عامر بن لؤي وكان أبوه كاتباً لعبيد اللّه كاتب المهدي أحضره المأمون بعد وفاة الفضل بن سهل وقال له: إني كنت عزمت ألا أستوزر أحداً بعد ذي الرياستين وقد رأيت أن أستوزرك فقال: يا أمير المؤمنين اجعل بيني وبين الغاية منزلة يتأملها صديقي فيرجوها لي ولا يقول عدوي قد بلغ الغاية وليس إلا الانحطاط. فاستحسن المأمون كلامه واستوزره.

وكان أحمد هذا من خيار الوزراء يحب أن تخلص قلوب الرعية لإمامه فكان دائم المشورة بما يسر أنفسهم ويسل دفين الأحقاد من صدورهم ومن طريف ما حصل منه مع المأمون أن المأمون ذكر يوماً عمرو بن مسعدة فاستبطأه وقال: يظن أني لا أعرف أخباره وما يحبب إليه وما يعامل به الناس وكان أحمد حاضراً هذا المجلس فذهب إلى عمرو وأخبره الخبر. فراح عمرو إلى المأمون فلما دخل عليه وضع سيفه بين يديه وقال: يا أمير المؤمنين أنا عائذ باللّه من سخطك ثم عائذ بك من سخطك يا أمير المؤمنين أنا أقل من أن يشكوني أمير المؤمنين إلى أحد أو يسر لي ضغناً يبعثه بعض الكلام على ظهاره ما يظهر منه. فقال له: وما ذاك فأخبره عمرو بما بلغه ولم يسم له المخبر فقال له المأمون: لم يكن الأمر كما بلغك وإنما كانت جملة من تفصيل كنت علي

أن أخبرك به وإنما أخرج مني هذا الكلام معنى تجاريناه وليس لك عندي إلا ما تحب فليفرج روعك وليحسن ظنك وظهر في وجهه الحياء والخجل فلما غدا أحمد على المأمون قال له: أما لمجلسي حرمة؟ فقال: يا أمير المؤمنين وهل الحرمة إلا لما فصل عن مجلسك فأخبره المأمون الخبر وأن بعض من حضر من بني هاشم هو الذي أفشى ما قاله المأمون فقال أحمد: أنا يا أمير المؤمنين أخبرت عمراً لا أحداً من بني هاشم والذي حملني على ذلك الشكر لك والنصح والمحبة لأن تتم نعمتك على أوليائك وخدمك، أعلم أن أمير المؤمنين يحب أن يصلح له الأعداء والبعداء فكيف الأولياء والقرباء لا سيما مثل عمرو في دنوه من الخدمة وموقعه من العمل ومكانه من رأي أمير المؤمنين أطال الله بقاءه فيه سمعت أمير المؤمنين أنكر منه شيئاً فخبرته به ليصلحه ويقوم من نفسه أودها لسيده ومولاه ويتلافى ما فرط منه ولا يفسده مثله ولا يبطل الغناء فيه وإنما كان يكون ما فعلت فيها لو أشعت سراً فيه قدح في السلطان أو نقض تدبير قد استتب فأما مثل هذا فما حسبته أن يكون ذنباً علي فنظر إليه المأمون ملياً وقال: كيف قلت فأعاد عليه ما قال ثم قال: أعد. فأعاد الثالثة فقال له المأمون: أحسنت لما أخبرتني به أحب إلي من ألف ألف وألف ألف وألف ألف وعقد خنصره وبنصره والوسطى وقال: أما ألف ألف فلنفيك عني سوء الظن وأطلق وسطاه وأما ألف ألف فلصدقك إياي عن نفسك وأطلق البنصر وأما ألف ألف فلحسن جوابك وأطلق الخنصر.

ومن عيوب أحمد بن أبي خالد أنه كان شرهاً يتقرب إليه الناس بالمآكل لينالوا ما عنده من المصالح وكان المأمون يعرف ذلك منه فأجرى عليه كل يوم لمائدته ألف درهم لئلا يشره إلى طعام أحد من بطانته وكان مع هذا يشره إلى طعام الناس وتمتد عينه إلى هدية تأتيه وكان مع هذا أسي اللقاء عابس الوجه يهر في وجوه الخاص والعام غير أن فعله كان أحسن من لقائه وكان من عرف أخلاقه وصبر على مداراته نفعه وأكسبه.

ومن الغريب أن يتفق لشخص الشراهة إلى طعام الناس وكثرة العطايا التي كان يمنحها من خاص ماله وقد روى عنه أبو الفضل أحمد بن طاهر بن طيفور في أخبار بغداد أنه كان يقول: يهدى إلي الطعام فوالله ما أدري ما أصنع به يهديه إلي صديق استحي من رده عليه.

توفي أحمد بن أبي خالد في ذي القعدة (سنة ٢١١) وصلى عليه المأمون ولما دلي في حفرته ترحم عليه وقال: أنت والله كما قال القائل:

أخو الجد إن جد الرجال وشمروا وذو باطل إن كان في القوم باطل

استوزر المأمون بعده أحمد بن يوسف كان كاتباً من خيرة الكتاب وأجودهم خطاً حتى قال له المأمون يوماً: يا أحمد لوددت أني أخط مثل خطك وعلي صدقة ألف ألف درهم، وكان يجيد الكتابة حتى كان المأمون إذا كان يتولى عمرو بن مسعدة ديوان الرسائل كان يكلف أحمد بن

يوسف بكتابة الكتب التي يريد أن تشهر وتذكر وولاه المأمون ديوان السر وبريد خراسان وصدقات البصرة ولما مات أحمد بن أبي خالد استوزره مكانه وكان من بطانة المأمون من يحسد أحمد بن يوسف على الدرجة التي وصل إليها من المأمون فكادوا له المكايد حتى أقصوه عن قلبه وقد أردت أن أبين لحضراتكم الطريقة الدنيئة التي اتبعوها مع الوزير الذي لم يجدوا فيه عيباً من جهة عمله. كان المأمون يستدعي أحمد بن يوسف سحراً لقضاء الأمور معه فقال أحد البطانة لخادم ممن يقوم على رأس المأمون: إذا خص المأمون أحمد بن يوسف بكرامة أو لون من الألوان فأعلمني وضمن له من أجل ذلك مالاً. دخل أحمد عند المأمون ذات يوم سحر وليس عنده أحد وكان تحت المأمون مجمرة عليها بيضة عنبر كان أمر بوضعها حين دخل أحمد ولم تكن النار قد عملت فيها إلا قليلاً فأراد أن يكرم بها أحمد ويؤثره بها فأمر بأن تنقل تحته. فأخبر الخادم صاحبه بذلك وهو محمد بن الخليل بن هشام فلما دخل المأمون سأله عما تقول العامة وما تتحدث به فكان مما أخبره به أن قال: انصرفت يوماً فمررت بمشرعة وأنا في الزلال (قارب) فسمعت سقاء يقول لآخر معه ما رأيت كما يخبر ندماء الرجل عنه فقال: ومن تعني؟ قال له: أمير المؤمنين. قال: وما ذاك؟ قال: انصرف من عنده أحمد بن يوسف فسمعته يقول لغلامه: ما رأيت أحداً قط أبخل ولا أعجب من المأمون دخلت عليه اليوم وهو يتبخر فلم تتسع نفسه أن يدعو لي بقطعة بخور حتى أخرج القتار الذي كان تحته فبخرني به، فعرف المأمون الحديث وقال في نفسه: واللّه ما حضر هذا اليوم أحد فأتوهم فيه ضرباً من الضروب، وجفا أحمد بن يوسف وأزاله عن مرتبته.

استوزر المأمون بعده القاضي يحيى بن أكثم التميمي كان من جلة العلماء الفقهاء الذين لهم قدم ثابتة في الحديث والفقه والأصول تولى قضاء البصرة وسنه عشرون سنة ثم اتصل بالمأمون وصله به ثمامة بن أشرس العالم المتكلم الذي كان المأمون يثق به كثيراً فلما احتاج المأمون إلى من يوليه الوزارة عرضها على ثمامة فامتنع منها ووصف له يحيى فاستوزره وولاه مع ذلك قاضي القضاة فكان إليه تدبير المملكة والقضاء وقلما اجتمعا في شخص. وكان يحيى على مذهب العامة فكان إذا أراد المأمون شيئاً يخالف ما هم عليه احتال فيما يرجعه عنه. أراد المأمون أن يعلن يوماً حل المتعة وهو شيء نهى عنه عمر بن الخطاب فدخل عليه يحيى وهو متغير فسأله المأمون عن سبب تغيره فقال: غم يا أمير المؤمنين لما حدث في الإسلام وهو النداء بتحليل الزنا قال: الزنا؟ قال: نعم المتعة زنا. قال: من أين؟ قال: من كتاب اللّه وحديث رسول اللّه قال اللّه تعالى: **﴿والذين هم لفروجهم حافظون * إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين * فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون﴾**[1] يا أمير المؤمنين زوجة المتعة ملك يمين

(١) سورة: المؤمنون، الآيات: ٥ ـ ٧.

قال: لا. قال: فهي الزوجة التي عند اللّه ترث وتورث وتلحق الولد ولها شرائطها قال: لا. قال: فقد صار من يتجاوز هذين من العادين ـ وهذا الزهري يا أمير المؤمنين روى عن عبد اللّه والحسن بن محمد بن الحنفية عن أبيهما عن علي بن أبي طالب قال: أمرني رسول اللّه ﷺ أن أنادي بالنهي عن المتعة وتحريمها بعد أن كان قد أمر بها. فسأل المأمون عن حديث الزهري أهو محفوظ فعلم أنه رواه مالك فقال المأمون: أستغفر اللّه وأمر فنودي بتحريم المتعة. وكان يحيى مع فقهه من أدهى الناس وأخبرهم بالأمور فصيحاً جوابه على قدر سؤال سائله لقيه مرة رجل فقال: أصلح اللّه القاضي كم آكل؟ قال: فوق الجوع ودون الشبع قال: فكم أضحك قال: حتى يسفر وجهك ولا يعلو صوتك، قال: فكم أبكي قال: لا تمل من البكاء من خشية اللّه تعالى، قال: فكم أخفي عملي؟ قال: ما استطعت، قال: فكم أظهر منه؟ قال: مقدار ما يقتدي بك البر الخير ويؤمن عليك قول الناس.

وكان يحيى من المحدثين الذين يروى عنهم الحديث وقد اتهم بهنات لم يثبتها الناقدون من أهل عصره قال طلحة بن محمد بن جعفر في حقه: يحيى بن أكثم أحد أعلام الدنيا قد اشتهر أمره وعرف خبره ولم يستتر عن الكبير والصغير من الناس فضله وعمله ورياسته وسياسته لأمره وأمر أهل زمانه من الخلفاء والملوك واسع العلم بالفقه كثير الأدب حسن المعارضة قائم بكل معضلة وغلب على المأمون حتى لم يتقدمه أحد من الناس جميعاً عنده. وكان المأمون ممن برع في العلوم فعرف من حال يحيى بن أكثم وما هو عليه من العلم والعقل ما أخذه بمجامع قلبه حتى قلده قضاء القضاة وتدبير أهل مملكته فكانت الوزارة لا تعمل في تدبيره الملك شيئاً إلا بعد مطالعة يحيى بن أكثم.

وذكر الخطيب في تاريخه أنه ذكر لأحمد بن حنبل رضي اللّه عنه ما يرميه الناس به فقال: سبحان اللّه من يقول هذا وأنكر ذلك إنكاراً شديداً ذكر ذلك ابن خلكان في تاريخه وقال الطيفوري في تاريخ بغداد: قال أحمد بن أبي طاهر كان المأمون يحضر يحيى بن أكثم وهو يشرب فلا يسقيه ويقول: لو أراد يحيى أن يشرب ما تركته وربما وضعت الصحفة قدام المأمون: فيها مطبوخ (نبيذ) ويحيى يأكل معه فيقول له المأمون: فيها مطبوخ إني لا أترك قاضي يشرب النبيذ.

ولم يذكر ابن طباطبا في كتابه الفخري يحيى بن أكثم في عداد وزراء المأمون والظاهر من عبارة طلحة بن محمد التي أوردناها أنه كان بمنزلة مستشار للخليفة فيما يجري على أيدي الوزراء من الأعمال.

ولم يكن ختام أمره مع المأمون خيراً فقد كان من ضمن وصية المأمون لأخيه المعتصم: ولا تتخذن بعدي وزيراً تلقي إليه شيئاً فقد علمت ما نكبني به يحيى بن أكثم في معاملة الناس

وخبث سيرته حتى أبان اللّه ذلك منه في صحة مني فصرت إلى مفارقته قالياً له غير راض بما صنع في أموال اللّه وصدقاته لا جزاه اللّه عن الإسلام خيراً.

ولولا هذه العبارة في وصية المأمون لم يكن وصل إلى علمنا شيء مما كان بين المأمون ويحيى بن أكثم في خاتمة الاتصال بينهما ثم رأيت في مروج الذهب أن المأمون سخط عليه (سنة ٢١٥) وذلك بمصر وبعث به إلى العراق مغضوباً عليه.

وقد طالت حياة يحيى بن أكثم حتى توفي في عهد جعفر المتوكل.

ومن وزراء المأمون أبو عباد ثابت بن يحيى بن يسار الرازي وهو الذي يقول فيه دعبل:

أولى الأمور بضيعة وفساد أمر يدبره أبو عباد

فقد كان مع كتابته وحذقه بالحساب أهوج محمقاً. وقد قيل للمأمون: إن دعبلاً هجاك! فقال: من أقدم على هجاء أبي عباد كيف لا يهجوني. وكان شديد الحدة سريع الغضب ربما اغتاظ من بعض من يكون بين يديه فرماه بدواته أو شتمه فأفحش.

ومن وزرائه أبو عبد اللّه محمد بن داد بن سويد وهو آخر وزرائه وأصل بيته من خراسان كانوا مجوساً ثم أسلموا واتصلوا بالخلفاء وسويد أول من أسلم منهم وخرج بنوه كتاباً ولا سيما محمداً فإنه تأدب وبرع في كل شيء فاستوزره المأمون ومات وهو وزيره.

ولم يكن للوزراء في عهد المأمون كبير نفوذ بالأمور ولا استبداد بمصالح الدولة بل كانوا ينهون هذه المصالح مع المأمون نفسه ويظهر أن الحوادث السابقة في عهد الرشيد ومن قبله بل وفي أول عهد المأمون جعلت الخليفة يسيّر أمور دولته بنفسه لئلا يستفحل أمر وزرائه فيكون من ذلك ما يخشاه من مثل ما حصل للفضل بن سهل ولجعفر بن يحيى البرمكي وأهل بيته ولمن قبلهم من أمثالهم.

الأحوال الداخلية:

العلويون وآثارهم في الدولة.

قدمنا ما كان من المأمون من اختياره لولاية عهده علي الرضا بن موسى الكاظم وهو الثامن من أئمة الشيعة الإمامية الاثني عشرية واتخاذه الشعار الأخضر بدل الأسود وما ترتب على ذلك من الاضطراب في بغداد وقيام أبي السرايا والعلويين الذين قاموا من أجل قيامه في الأمصار الكبرى ثم ما كان من وفاة علي الرضا بطوس وانتهاء فتنة أبي السرايا وسقوط جميع العلويين الذين خرجوا في ذلك الوقت بالبصرة والحجاز واليمن. ونزع المأمون للشعار الأخضر بعد حلوله ببغداد وعودته إلى شعار أهل بيته وهو السواد. وكان المأمون قد صاهر علياً فزوجه ابنته ثم زوج محمد بن علي

المعروف بالجواد وهو الإمام التاسع من أئمة الشيعة ابنته الأخرى ولم يكن من محمد هذا ما يريب المأمون. وكان المأمون يعامل الطالبيين معاملة تناسب اعتقاده في فضل أبيهم إلى أن خرج في (سنة ٢٠٧) باليمن من آل أبي طالب عبد الرحمٰن بن أحمد بن عبد اللّٰه بن محمد بن عمر بن علي بن أبي طالب فوجه إليه المأمون دينار بن عبد اللّٰه في جيش كثيف وكتب معه بأمانه فحضر دينار بن عبد اللّٰه الموسم وحج ولما فرغ من حجه سار إلى اليمن حتى أتى عبد الرحمن فبعث إليه بأمانه من المأمون فقبل ذلك ودخل ووضع يده في يد دينار فخرج به إلى المأمون فمنع المأمون عند ذلك الطالبيين من الدخول عليه وأمر بأخذهم بلبس السواد.

ومع ذلك فقد جاء في وصيته لأخيه المعتصم وهو يجود بنفسه (وهؤلاء بنو عمك أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي اللّٰه تعالى عنه فأحسن صحبتهم وتجاوز عن مسيئهم واقبل من محسنهم وصلاتهم فلا تغفلها في كل سنة عند محلها فإن حقوقهم تجب من وجوه شتى).

وبسبب اختلال الأمن في البلاد اليمنية ورسوخ التشيع فيها أراد المأمون أن يختار لولاية تهامتها من يأخذ على أيدي المفسدين فيها فأشار عليه الحسن بن سهل برجل من ولد زياد بن أبي سفيان وهو محمد بن إبراهيم الزيادي فولاه إياها (سنة ٢٠٣) فتوجه فحج ثم ذهب إلى اليمن ففتح تهامة واختط مدينة زبيد (سنة ٢٠٤) وهي التي صارت حاضرة تهامة. وقد عظم أمر الزيادي بعد ذلك باليمن وصار كملك مستقل إلا أنه كان يخطب لبني العباس ويحمل إليهم الخراج والهدايا وطال ملكه إلى (سنة ٢٤٥) ثم صار الملك في أبنائه ثم في مواليهم وموالي مواليهم إلى (سنة ٥٥٣) وتعرف هذه الدولة بالدولة الزيادية وهي أول الدول استقلالاً باليمن.

وحال هذه الدولة يشبه حال دول الأغالبة في إفريقية فإن الرشيد ولاها إبراهيم ابن الأغلب التميمي ليكون حاجزاً بين الخلافة العباسية وبين الأدارسة الذين بالمغرب الأقصى وكانت توليته إياها (سنة ١٨٤) فعظم أمره وسار كملك مستقل إلا أنه يخطب للرشيد واستمر الملك في أعقابه إلى (سنة ٢٩٦) وكان الأمير في عهد المأمون عبد اللّٰه بن إبراهيم بن الأغلب (٢٩٦ ـ ٣٠١) ثم زيادة اللّٰه بن إبراهيم بن الأغلب الذي استمر ملكه إلى (سنة ٣٢٣) وهو الذي فتح جزيرة صقلية من أيدي الروم.

فهاتان الدولتان أول الدول المتغلبة على أطراف بني العباس وأصل تكوينهم الخوف من الطالبيين وامتداد نفوذهم وذلك بعد أن اقتطع من الخلافة المغرب الأقصى للأدارسة والأندلس لبني أمية.

إبراهيم بن المهدي:

قدمنا ما كان من بيعة أهل بغداد لإبراهيم بن المهدي إذ كان المأمون بمرو فلما شخص

المأمون إلى بغداد وعلم بقدومه القواد الذين كانوا مع إبراهيم تركوه فلما رأى ذلك اختفى وظل مختفياً ببغداد يتنقل من دار إلى دار إلى (سنة ٢١٠) وفي تلك السنة أخذ أخذه حارس أسود وهو متنقب مع امرأتين في زي امرأة فأعلم المأمون بخبره فأمر بالاحتفاظ به ثم دخل به عليه فقال له: هيه يا إبراهيم فقال: يا أمير المؤمنين ولي الثأر محكم في القصاص والعفو أقرب للتقوى ومن تناوله الاعتزاز بما مد له من أسباب الشقاء أمكن عادية الدهر من نفسه وقد جعلك اللّه فوق كل ذنب كما جعل كل ذي ذنب دونك فإن تعاقب فبحقك وإن تعف فبفضلك. قال: بل أعفو يا إبراهيم فقال إبراهيم يمدحه:

يا خير من ذملت يمانية به ... بعد الرسول لآيس أو طامع
وأبو من عبد الإله على التقى ... عيناً وأقوله بحق صادع
على الفوارع ما أطعت فإن تهج ... فالصاب يمزج بالسمام الناقع
متيقظاً حذراً وما يخشى العدا ... نبهان من وسنات ليل الهاجع
ملئت قلوب الناس منك مخافة ... وتبيت تكلؤهم بقلب خاشع
بأبي وأمي فدية وبنيهما ... من كل معضلة وريب واقع
ما ألين الكنف الذي بوأتني ... وطناً وأمرع رتعه للراتع
للصالحات أخاً جعلت وللتقى ... وأباً رؤوفاً للفقير القانع
نفسي فداؤك إذ تضل معاذري ... وألوذ منك بفضل حلم واسع
أملاً لفضلك والفواضل شيمة ... رفعت بناءك بالمحل اليافع
فبذلت أفضل ما يضيق ببذله ... وسع النفوس من الفعال البارع
وعفوت عمن لم يكن عن مثله ... عفو ولم يشفع إليك بشافع
إلا العلو عن العقوبة بعد ما ... ظفرت يداك بمستكين خاضع
فرحمت أطفالاً كأفراح القطا ... وعويل عانسة كقول النازع
وعطفت آصرة علي كما وعى ... بعد انهياض الوثي عظم الظالع
اللّه يعلم ما أقول فإنها ... جهد الألية من حنيف راكع
ما إن عصيتك والغواة تقودني ... أسبابها إلا بنية طائع
حي إذا قطعت حبائل شقوتي ... بردي إلى حفر المهالك هائع
لم أدر أن لمثل جرمي غافرا ... فوقفت أنظر أي حتف صارعي
رد الحياة علي بعد ذهابها ... ورع الإمام القادر المتواضع
أحياك من ولاك أطول مدة ... ورمى عدوك بالوتين بقاطع

كم من يد لك لم تحدثني بها ... نفسي إذا آلت إلي مطامعي
أسديتها عفواً إلي هنيئة ... فشكرت مصطنعاً لأكرم صانع
إلا يسيراً عند ما أوليتني ... وهو الكثير لدي غير الضائع
إن أنت جدت بها علي تكن لها ... أهلاً وإن تمنع فأعدل مانع
إن الذي قسم الخلافة حازها ... في صلب آدم للإمام السابع
جمع القلوب عليك جامع أمرها ... وحوى رداءك كل خير جامع

فذكر أن المأمون حين أنشده إبراهيم هذه القصيدة قال: أقول ما قال يوسف لإخوته **﴿لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين﴾**[1].

ومن الغريب أن المأمون قد اطلع قبيل ذلك على مؤامرة يقصد بها خلع المأمون وإعادة إبراهيم بن المهدي للخلافة، ورئيس هذا الأمر إبراهيم بن محمد بن عبد الوهاب بن إبراهيم الإمام المعروف بابن عائشة.

وكان اطلاع المأمون على ذلك يوم السبت (٥ صفر سنة ٢١٠) والظفر بإبراهيم ابن المهدي ليلة الأحد (١٣ ربيع الآخر سنة ٢١٠) وقد انتقم المأمون من ابن عائشة انتقاماً شديداً فقد أمر أن يقام ثلاثة أيام في الشمس على باب دار المأمون ثم ضربه بالسياط ثم أمر بحبسه في المطبق وفعل قريباً من ذلك بمن كانوا معه وقد كتبوا للمأمون أسماء من دخل معهم في هذا الأمر من القواد والجند وسائر الناس فلم يعرض المأمون لأحد ممن كتبوا به ولم يأمن أن يكونوا قد قذفوا أقواماً برآء ثم أمر المأمون بعد ذلك بابن عائشة فقتل وصلب وهو أول مصلوب في الإسلام من بني العباس وقتل معه ثلاثة من رؤوس المتآمرين وكان قتلهم في (١٤ جمادى الآخر) من تلك السنة.

نصر بن شيث:

كان نصر بن شيث من بني عقيل يسكن يكسوم شمالي حلب وكان عربياً شريفاً شهماً، له في محمد الأمين هوى فلما قتل الأمين غضب ولا سيما لما رأى العنصر العربي قد انحط شأنه وصار معظم القواد الأمراء من غيرهم فأظهر الخروج على السلطان وكان ذلك أواخر (سنة ١٩٨) وتغلب على ما جاوره من البلاد وملك سميساط واجتمع عليه خلق كثير من الأعراب وأهل الطمع وقويت نفسه وعبر الفرات إلى الجانب الشرقي وحدثته نفسه بالتغلب عليه فلما رأى الناس ذلك منه كثرت جموعه وزادت على ما كانت.

لما انتصر طاهر بن الحسين على الأمين وملك العراق ولي الحسن بن سهل على كل

(١) سورة: يوسف، الآية: ٩٢.

ما افتتحه وأمر أن يسلم ذلك إليه وأن يسير إلى الرقة لمحاربة نصر وولاه المأمون الموصل والجزيرة والشام والمغرب فسار طاهر إلى وجهه وأرسل إلى نصر يدعوه إلى الطاعة وترك الخلاف فلم يجب فتقدم إليه طاهر ولقيه بنواحي يكسوم فاقتتلا هناك قتالاً عظيماً أبلى فيه نصر بلاء حسناً فكان النصر له وعاد طاهر إلى الرقة شبه المنهزم وكان قصارى أمره حفظ تلك النواحي. والظاهر أنه لم يكن جاداً في حرب نصر لأنه رأى نفسه جرد مما فتحه من العراق وغيره ولم يتمتع بشيء مما جاء.

كان ذلك مما قوى أمر نصر حتى كثر جمعه وحصر حران بالجزيرة وأتاه نفر من شيعة الطالبيين فقالوا له: قد وترت بني العباس وقتلت رجالهم فلو بايعت لخليفة كان أقوى لأمرك. فقال: من أي الناس؟ فقالوا: نبايع لبعض آل علي بن أبي طالب. فقال: أبايع بعض أولاد السوداريات فيقول إنه خلقني ورزقني قالوا: فنبايع لبعض بني أمية. قال: أولئك قوم قد أدبر أمرهم والمدبر لا يقبل أبداً ولو سلم على مدبر لأعداني إدباره وإنما هو أي في بني العباس وإنما حاربتهم محاماة عن العرب لأنهم يقدمون عليهم العجم ولما شخص المأمون إلى بغداد أمر طاهراً أن يلقاه بها فترك الرقة واستخلف على الجيش ابنه عبد اللّه وأمره أن يقاتل نصراً فلما قدم طاهر ولاه المأمون خراسان وولى ابنه عبد اللّه من الرقة إلى مصر وأمره بالجد في محاربة نصر وحينذاك كتب طاهر إلى ابنه عبد اللّه ذلك الكتاب المشهور الذي جمع فيه كل ما يحتاج إليه الأمراء من الآداب والسياسة والحث على مكارم الأخلاق ومحاسن الشيم مما لا يستغني عنه أحد من ملك وسوقة وهذا الكتاب قد تنازعه الناس وكتبوه وشاع أمره وبلغ المأمون خبره فدعا به فقرأ عليه فقال: ما أبقى أبو الطيب (يعني طاهراً) شيئاً من أمر الدنيا والدين والتدبير والرأي والسياسة وحفظ السلطان وطاعة الخلفاء وتقويم الخلافة إلا وقد أحكم وأوصى به وأمر فكتب به إلى جميع العمال والنواحي ذهب عبد اللّه إلى وجهه في محاربة نصر فجد في أمره وحصره وضيق عليه حتى مال إلى الأمان وفي ذلك الوقت ندب المأمون جعفر بن محمد العامري ليؤدي إلى نصر رسالة فذهب إليه وهو بكفر عزون بسروج فأبلغه رسالة المأمون التي يطلب فيها منه ترك الحرب والجنوح إلى السلم فأذعن وشرط شروطاً منها ألا يطأ بساطه فأتى المأمون وأبلغه مطالب نصر فقال: لا أجيبه واللّه إلى هذا أبداً ولو أفضيت إلى بيع قميصي حتى يطأ بساطي. فعاد الرسول إلى نصر فأخبره فصاح بالخيل صيحة فجالت ثم قال: ويلي عليه هو لم يقو على أربعمائة ضفدع تحت جناحه (يعني الزط) يقوى على حلبة العرب. لكنه مع جد عبد اللّه بن طاهر في حربه أجاب إلى التسليم وطلب الأمان فكتب له المأمون كتاب أمان فخرج إلى عبد اللّه بن طاهر وحينذاك هدم يكسوم وخربها ووجه بنصر إلى المأمون فدخل بغداد في صفر (سنة ٢١٠) وأنزل مدينة أبي جعفر ووكل به من يحفظه.

وكان مقام عبد اللّه بن طاهر على حربه خمس سنين.

الزط:

الزط معرب (جت) قال عنهم ابن خلدون «هم قوم من أخلاط الناس غلبوا على طريق البصرة وعاثوا فيها وأفسدوا البلاد» أهـ وهم المعروفون بالنور أصلهم من هنود آسيا كانوا يسكنون شواطىء الخليج الفارسي تجمعوا واستولوا على طريق البصرة أيام الفتنة التي كانت بين الأمين والمأمون ولما استقر المأمون ببغداد بعث عيسى بن يزيد الجلودي لحربهم (سنة ٢٠٥) ويظهر أنهم كانوا إذا أحرجتهم الجنود تفرقوا في تلك الفيافي فقد ذكر الطبري في حوادث (سنة ٢٠٦) أن المأمون ولى داوود بن ماسجور محاربة الزط وأعمال البصرة وكور دجلة واليمامة والبحرين ولم يذكر هو ولا متبعوه نتيجة فعله ولا فعل من قبله والظاهر أنهما لم يؤثرا أثراً فاصلاً بدليل ما ورد في عبارة نصر بن شيث (إنه لم يقو على أربعمائة ضفدع تحت جناحه) وقد استمر أمرهم كذلك إلى (سنة ٢١٩) في عهد المعتصم حيث وجه إليهم عجيف بن عنبسة أحد قواده وكانوا قد عاثوا في طريق البصرة فقطعوا فيه الطريق واحتملوا الغلات من البيادر بكسكر وما يليها من البصرة وأخافوا السبيل فاهتم عجيف بحربهم ليضربهم ضربة قاضية فعسكر بقرب واسط وسد الأنهار التي كان الزط يدخلون منها ويخرجون فحصرهم من كل وجه ولما أخذ عليهم طرقهم حاربهم وأسر (٥٠٠) رجل وقتل منهم في المعركة (٣٠٠) رجل فضرب أعناق الأسرى وبعث برؤوس جميعهم إلى المعتصم. ثم أقام بإزائهم (١٥) يوماً ظفر منهم فيها بخلق كثير وكان رئيس الزط رجلاً يقال له محمد بن عثمان وكان صاحب أمره والقائم بالحرب سملق. ومكث عجيف يقاتلهم فيما قيل تسعة أشهر ولم يزل يلح عليهم حتى طلبوا منه الأمان فأمنهم فخرجوا إليه في ذي الحجة (سنة ٢١٩) على أنهم آمنون على دمائهم وأموالهم وكانت عدتهم ذكر (٢٧) ألفاً المقاتلة منهم (١٢) ألفاً وأحصاهم عجيف (٢٧) ألف إنسان بين رجل وامرأة وصبي ثم جعلهم في السفن وأقبل بهم حتى نزل الزعفرانية وأقام بها يوماً وعبأهم في زواريقهم على هيئتهم في الحرب معهم البوقات حتى دخل بهم بغداد يوم عاشوراء (سنة ٢٢٠) فمروا على المعتصم على تعبئتهم ثم عبر بهم إلى الجانب الشرقي فدفعوا إلى بشر بن السميدع فذهب بهم إلى خانقين ثم نقلوا إلى الثغر إلى عين زربة وقد ذكر ابن الأثير في حوادث (سنة ٢٤١) في عهد المتوكل أن الروم أغارت على عين زربة فأخذت من كان بها أسيراً من الزط مع نسائهم وذراريهم وذويهم.

بابك الحرمي:

بين أذربيجان وأران في شمال بلاد الفرس كورة تدعى البذ يمر بها نهر الرس العظيم بهذه الكورة خرج بابك التي امتدت فتنته زمناً طويلاً في عهد المأمون والمعتصم وكان خروجه

(سنة ٢٢١) في عهد المأمون ومنتهاه (سنة ٢٣١) في عهد المعتصم.

ولا بد لنا من شرح أحوال هذا الرجل وفتنه وما كانوا عليه من الاعتقاد وما أثروه في دولة المأمون والمعتصم.

تمتاز البلاد الفارسية بكثرة المذاهب والاعتقادات الدينية سواء في ذلك ما كان قبل البعثة المحمدية وما بعدها ومن تلك الطوائف فرقة تسمى الحرمية (بالحاء والراء المهملتين) كما جرى عليه ابن النديم في فهرسه وهم صنفان: الحرمية الأولون ويسمون المحمرة وصاحبهم مزدك القديم أمرهم بتناول اللذات والانعكاف على بلوغ الشهوات والأكل والشرب والمواساة والاختلاط وترك الاستبداد بعضهم على بعض ولهم مشاركة في الحرم والأهل لا يمتنع الواحد منهم من حرمة الآخر ولا يمنعه ومع هذه الحال فيرون أفعال الخير وترك القتل وإدخال الآلام على النفوس ولهم مذهب في الضيافات ليس هو لأحد من الأمم إذا أضافوا الإنسان لم يمنعوه من شيء يلتمسه كائناً ما كان، وعلى هذا المذهب مزدك الأخير الذي ظهر أيام قباذ بن فيروز وقتله أنوشروان وقتل أصحابه. الصنف الثاني الحرمية البابكية ينسبون إلى صاحبهم بابك الحرمي وكان يقول لمن استغواه إنه إلّه وأحدث في مذاهب الحرمية القتل والغصب والحروب والمثلة ولم تكن الحرمية تفعل ذلك. هكذا ذكر ابن النديم ومنه يظهر وجه تسميتهم بالحرمية أما سائر المؤرخين فيقولون هم الخرمية (بالخاء المعجمة المضمومة والراء المفتوحة المشددة) قال أبو سعيد عبد الكريم بن محمد السمعاني المروزي في كتاب الأنساب (الخرمي) نسبة إلى طائفة من الباطنية يقال لهم الخرمدينية يدينون بما يريدون ويشتهون وإنما لقبوا بذلك لإباحتهم المحرمات من الخمر وسائر الملذات ونكاح ذوات المحارم وفعل ما يتلذذون به؛ فلما شابهوا في هذه الإباحة المزدكية من المجوس الذين خرجوا في أيام قباذ وأباحوا النساء كلهن وأباحوا سائر المحرمات إلى أن قتلهم أنوشروان بن قباذ قيل لهم بهذه المشابهة خرمدينية كما قيل للمزدكية وقال صاحب القاموس: خرمة قرية بفارس منها بابك الخرمي ـ ثم قال وتخرم دان بدين الخرمية لأصحاب التناسخ والإباحة.

ومن ذلك يظهر أن ما جاء في فهرس ابن النديم تحريف.

نشأ بابك بن بهرام بقرية تدعى بلال أباد رستاق ميمتد ثم اتصل بجاويدان ابن سهرك ملك جبال البذ ورئيس من بها من الخرمية وكان جاويدان يرى منه فهماً وشهامة وخبثاً ففر به إليه ولما أدركته منيته اجتهدت امرأته في أن يكون بابك مكانه في الملك فجمعت الخرمية وقالت لهم: إن جاويدان قال لي: إني أموت في ليلتي هذه وإن روحي تخرج من جسدي وتدخل بدن هذا الغلام خادمي وقد رأيت أن أملكه على أصحابي فإذا مت فأعلميهم ذلك وأن لا دين لمن خالفني

فيه واختار لنفسه خلاف اختياري فقبلوا ذلك منها وتزوجت بابك.

أخذ بابك ومن معه في العيث والفساد وإخافة السبل وأول ما عرف ذلك من أمره كان (سنة ٢٠١) والمأمون بمرو لم يبرحها إلى بغداد فلما شخص المأمون إلى بغداد عين أحد قواده يحيى بن معاذ لحرب بابك فكانت بينهما وقعة لم ينتصف فيها أحدهما من الآخر فاختار المأمون قائداً آخر هو عيسى بن محمد بن أبي خالد فولاه أرمينية وأذربيجان ومحاربة بابك فنكب ثم وجه إليه صدقة بن علي المعروف بزريق وندب للقيام بأمره أحمد بن الجنيد الإسكافي فأسره بابك ثم وجه إليه محمد بن حميد الطوسي فقتله بابك، (سنة ٢١٤) بهشتادسر وفض عسكره وقتل جمعاً كثيراً ممن كان معه هكذا كان كلما أرسل لحرب بابك قائداً لم يصنع شيئاً لمكان بابك الحصين وقوته الكبيرة وشدة تأثيره في قلوب الجمهور الذين كانوا معه وقد ذكر في حوادث (سنة ٢٢٨) دخول جماعة كثيرة من أهل الجبال من همذان وأصبهان وماسبذان ومهرجان قذق في دين الخرمية وتجمعوا فعسكروا في عمل همذان ذلك أول ولاية المعتصم فوجه إليهم الجنود وكان آخر عسكر وجه إليهم وجهه المعتصم مع إسحاق بن إبراهيم بن مصعب وعقد له على الجبال فشخص إليهم وفض جموعهم وقتل في عمل همذان ستين ألفاً منهم وهرب سائرهم إلى بلاد الروم فقبلهم ملك الروم أحسن قبول وفرض لهم وزوجهم وصيرهم مقاتلة يستعين بهم في أهم أموره.

وكان من وصية المأمون لأخيه المعتصم حين أدركته المنية (والخرمية فاغزهم ذا جزامة وصرامة وجلد واكنفه بالأموال والسلاح والجنود من الفرسان والرجالة فإن طالت مدتهم فتجرد لهم بمن معك من أنصارك وأوليائك واعمل في ذلك عمل مقدم النية فيه راجياً ثواب الله عليه) لذلك بذل المعتصم جهده في كسر شوكة بابك لئلا يمتد شر بدعته في البلاد الفارسية فاختار لحربه قائداً تركياً من كبار قواده وهو حيدر بن كلوس الأشروسني المعروف بالأفشين (الأفشين لقب لملوك أشروسنة) وذلك (سنة ٢٣٠) وقبل أن يخرج لوجهه وجه أبا سعيد محمد بن يوسف إلى مدينة أردبيل وأمره أن يبنى الحصون التي خربها بابك فيما بين زنجان وأردبيل ويجعل فيها الرجال مسالح لحفظ الطريق لمن يجلب الميرة إلى أردبيل ففعل أبو سعيد ما أمره وأوقع بسرية أرسلها بابك للإغارة عليه وهذه أول مرة انهزم فيها لبابك جند. ثم نظم البريد بينه وبين الجيش فجعل من سامرا إلى عقبة حلوان خيلاً مضمرة على رأس كل فرسخ فرس معه مجر مرتب فكان يركض بالخيل ركضاً حتى يؤديه من واحد إلى واحد يداً بيد ومن حلوان إلى أذربيجان رتب في دواب المرج فكان يركض بها يوماً أو يومين ثم تبدل ويصير غيرها ويحمل عليها غلمان من أصحاب المرج كل دابة على رأس فرسخ وجعل لهم ديادبة على رؤوس الجبال بالليل النهار وأمروا أن ينفروا وإذا جاءهم الخبر فإذا سمع الذي يليه النفير تهيأ فلا يبلغ إلى صاحبه الذي نفر حتى يقف له

على الطريق فيأخذ الخريطة منه فكانت الخريطة تصل من عسكر الأفيشين إلى سامرا في أربعة أيام وأقل.

توجه الأفشين حتى أتى برزند فعسكر بها ورمّ الحصون فيما بين برزند وأردبيل وأنزل قواداً من قواده ببعض الحصون هناك لحراسة القوافل والسابلة وأطلق الأفشين عيونه وجواسيسه لتعرف الأخبار عن بابك. وأول وقعة كانت بينه وبين عسكر بابك بأرشق أحد حصون الأفشين حيث خرج بابك ليقنص مالاً أرسله المعتصم مع أحد قواده فبلغ خبره الأفشين فخرج إليه سراً والتقيا على مقربة من الحصن فأتى جند الأفشين على جميع رجالة بابك وأفلت هو في نفر يسير ودخل موفان ومنها توجه إلى البذ وعاد الأفشين إلى عسكره ببرزند.

استمرت الحروب بين الأفشين وبابك مدة طويلة وكانوا لا يتحاربون إلا إذا انصرم الشتاء لمكان الثلوج الشديدة التي كانت تكسو رؤوس الجبال وتمنع المشاة من التقدم إلى أن كان الربيع (سنة ٢٢١) فسار الأفشين من مكانه يريد مهاجمة البذ وأخذه عنوة فسار محترساً وقد رتب أموره أدق ترتيب لما هو قادم عليه فاستعرت لظى الحرب بين الفريقين واستبسلا كلاهما وانتهى الأمر باقتحام المسلمين البذ واستيلائهم عليها وقد أراد بابك الهرب وشرع فيه فأفسد عليه الأفشين تدبيره وسد عليه المسالك وأوقف عليها جنداً من جيشه وأخيراً قبض عليه وعلى أخيه عبد الله وعاد بهما الأفشين إلى سامرا كما أمره المعتصم ومعهما (١٧) رجلاً من أهل بيته ومن البنات والكتاب (٢٣) امرأة وكان يوم دخولهم سامرا يوماً مشهوداً ثم قتل بابك وصلب بسامرا وفعل مثل ذلك بأخيه عبد الله ببغداد.

وكان جميع من قتل بابك في عشرين سنة (٢٥٥٠٠) إنسان وغلب كثيراً من القواد الذي ذكرناهم وكان عنده من الأسرى الذين استنقذهم الأفشين (٧٦٠٠).

الخراج في عهد المأمون:

يمتاز عهد المأمون بوجود أثر تاريخي يدل على مقدار الجباية الخراجية من جميع اوقاليم التي دخلت تحت حكم الدولة العباسية وهو الثبت الذي نقله العلامة ابن خلدون في مقدمة تاريخه نقله عن كتاب جراب الدولة ولما في ذلك الثبت من الفائدة أحببنا أن ننقله عنه وها هو ذا:

الأقاليم الجباية من الدراهم والدنانير

الجباية من الدراهم والدنانير		الجباية من العروض	
السواد	٢٧,٨٠٠,٠٠٠ درهم	٢٠٠	حلة بخرانية
كسكر	١١,٦٠٠,٠٠٠ درهم	٢٤٠	رطلاً من تين الختم
كور دجلة	٢٠,٨٠٠,٠٠٠		
حلوان	٤,٨٠٠,٠٠٠		
الأهواز	٢٥,٠٠٠,٠٠٠	٣٠,٠٠٠	رطل سكر
		٣٠,٠٠٠	قارورة ماء ورد
فارس	٢٧,٠٠٠,٠٠٠	٢٠,٢٠٠	رطل زيت أسود
		٥٠٠	ثوب متاع يماني
		٢٠,٠٠٠	رطل تمر
كرمان	٤,٢٠٠,٠٠٠		
مكران	٤٠٠,٠٠٠	١٥٠	رطل عود هندي
السند ومايليه	١٢,٥٠٠,٠٠٠	٢٠٠	ثوب معين
سجستان	٤,٠٠٠,٠٠٠	٢٠	رطل من الفانيذ
		٢,٠٠٠	نقرة فضة
		٤٠,٠٠٠	برذون
		١,٠٠٠	رأس رقيق

الجباية من الدراهم والدنانير		الجباية من العروض	
خراسان	٢٨,٠٠٠,٠٠٠	٢٠,٠٠٠	ثوب متاع
جرجان	١٢,٠٠٠,٠٠٠	٣٠,٠٠٠	رطل أهليلج
قومس	١,٠٠٠,٠٠٠	١,٠٠٠	شقة أبريسم
طبرستان		١,٠٠٠	نقرة فضة

obeikandl.com

والرويان	٦,٣٠٠,٠٠٠	٦٠٠	قطعة قرش طبري
ودنباوند		٢٥٠	كساء
		٥٠٠	ثوب
		٣٠٠	منديل
		٣,٠٠٠	جام
الري	١٢,٠٠٠,٠٠٠	٢٠,٠٠٠	رطل عسل
همذان	١١,٣٠٠,٠٠٠	١,٠٠٠	رطل رب الرمانين
		١٢,٠٠٠	رطل عسل
ماها البصرة والكوفة	١٠,٧٠٠,٠٠٠		
ماسبذان والريان	٤,٠٠٠,٠٠٠		
شهر زور	٦,٧٠٠,٠٠٠		
الموصل وما إليها	٢٤,٠٠٠,٠٠٠	٢٠,٠٠٠	رطل عسل
أذربيجان	٤,٠٠٠,٠٠٠		
الجزيرة وما إليها	٣٤,٠٠٠,٠٠٠	١,٠٠٠	رأس رقيق
من عمل الفرات		١٢,٠٠٠	زق عسل
		١٠	بزاة
		٢٠	كساء
		٢٠	قسط محفور
		٥٣٠	رطل رقم
أرمينية	١٣,٠٠٠,٠٠٠	١٠,٠٠٠	رطل من المسايح السور
ما هي			
برقة	١,٠٠٠,٠٠٠	١٠,٠٠٠	رطل سونج
		٢٠٠	بغل
		٣٠	مهراً
		١٢٠	بساط
إفريقية	١٣,٠٠٠,٠٠٠		
المجموع بالدراهم	٣١٩,١٠٠,٠٠٠		

قنسرين	٤٠٠,٠٠٠	دينار
دمشق	٤٢٠,٠٠٠	دينار

obeikandl.com

الأردن	٩٧,٠٠٠	دينار	
فلسطين	٣١٠,٠٠٠	دينار	٣٠,٠٠٠ رطل زيت
مصر	١,٩٢٠,٠٠٠	دينار	
اليمن	٣٧٠,٠٠٠	دينار	
الحجاز	٣٠٠,٠٠٠	دينار	
المجموع	**٣,٨١٧,٠٠٠**	**دينار**	

فمجموع الخراج من الدراهم (٣١٩٦٠٠٠٠٠٠) درهم و (٣٨١٧٠٠٠) دينار ومن العروض ما ذكر أمام كل أقليم وإذا قوم بلغ شيئاً كثيراً. كان هذا كله يزد إلى بغداد حاضرة الخلافة ويتصرف فيه الخليفة فيدفع منه أرزاق وزرائه وعماله وحاشيته ويصرف منه في الحوادث التي تعرض للدولة من تجهيز الجيوش والباقي بعد ذلك كثير يهب منه ما شاء لمن شاء وذلك مقدار وافر يدور معظمه في الحاضرة الكبرى فيزيدها سعة ورخاء وترفاً. ومن نموذج ما كان يصرف على أيدي الخلفاء ما رواه الطيفوري في أخبار بغداد أنه ورد على المأمون وهو بالشام (٣٠٠٠٠٠٠٠) درهم حمله إليه المعتصم من خراج ما يتولاه فخرج المأمون وأصحابه ينظرون إلى ذلك المال فقال ليحيى بن أكثم: يا أبا محمد ينصرف أصحابنا هؤلاء الذين تراهم الساعة إلى منازلهم خائبين وننصرف نحن بهذه الأموال قد ملكناها دونهم إنا إذاً للئام ثم دعا محمد بن يزداد (وزيره) فقال: وقع لآل فلان بألف ألف ولآل فلان بمثلها فما زال كذلك حتى فرق (٢٤٠٠٠٠٠٠) ورجله في الركاب ثم قال: ادفع الباقي إلى المعلى يعطي جندنا ـ قال راوي الخبر فجئت حتى قمت نصب عينيه فلم أرد طرفي عنها لا يلحظني إلا يراني بتلك الحال فقال: يا أبا محمد وقع لهذا بخمسين ألف درهم من الستة الآلاف الألف لا يختلس ناظري قال: فلم تأت ليلتان حتى أخذت المال. وهذا عطاء كثير ولكن الوارد أكثر.

الجيش:

ظهور الدولة العباسية على أيدي أهل خراسان والموالي جعل لهؤلاء شأناً عظيماً في الدولة ومقاماً لا ينقص عن مقام العرب في اعتزاز الدولة بهم فكانت القواد العظام من أهل خراسان ومن العرب. وقيام دولة المأمون بأهل خراسان زاد مالهم في تلك الدولة وبقدر ما زادهم نقص من شأن العرب حتى لم يعد من العرب قائد معروف كما كان في عهد المنصور والمهدي والرشيد وصار معظم المرتزقين من الجند إنما هم من أهل خراسان والأبناء وصار معظم الاعتماد عليهم وظهرت أسماء قواد من عناصر أخرى من أتراك ما وراء النهر. روى الطيفوري أنه تعرض رجل للمأمون بالشام مراراً فقال يا أمير المؤمنين: انظر لعرب الشام كما نظرت إلى عجم خراسان قال: أكثرت علي يا أخا الشام والله ما نزلت قيساً عن ظهور الخيل إلا وأنا أرى أنه لم يبق في بيت مالي

درهم واحد وأما اليمن فواللّه ما أحببتها ولا أحبتني قط وأما قضاعة فسادتها تنتظر السفياني وخروجه فتكون من أشياعه. وأما ربيعة فساخطة على اللّه مذ بعث اللّه عز وجل نبيه ﷺ من مضر ولم يخرج اثنان إلا خرج أحدهما شارباً. اعزب فعل اللّه بك. وهذا تصريح عظيم من المأمون وهو يدل على أن تلك القوة العربية التي كان العالم الإسلامي يحس بوجودها وتخشى الخلفاء سطوتها وانحرافها قد اتضعت فاجترأ خليفة المسلمين أن يجهر بمثل هذا القول على ملأ من الناس ولما كان جيش الدولة هو الذي يدل على حقيقة أمرها كان من الواضح أن الدولة ليس لها من العربية إلا اللغة أما العصبية العربية للعنصر العربي فقد أشرفت على الامحاء.

القواد العظام في عهد المأمون:

أكبر من اشتهر في عهد المأمون بقيادة الجيوش ويمن النقيبة والصيت طاهر بن الحسين بن مصعب بن رزيق بن ماهان. كان جده رزيق مولى طلحة بن عبيد اللّه المعروف بطلحة الطلحات الخزاعي والي سجستان من مسلم بن زياد بن أبيه إلى خراسان ولا ندري أكان مولى إسلام أم مولى عتاقة ويغلب على الظن أنه مولى إسلام أسلم على يده فانتسب إلى قبيلته ولذلك كان يقال له الخزاعي وكانوا بقرية تدعى بوشنج من أعمال مرو وبها ولد طاهر بن الحسين (سنة ١٥٩) وكان جده مصعب بن رزيق والياً عليها وعلى هراة وكان قبل ذلك كاتباً لسليمان بن كثير الخزاعي داعية بني العباس.

نشأ طاهر ببوشنج شهماً شجاعاً أديباً وأول ما أحيا ذكره الخالد أعماله العظيمة التي قام بها في قواد الكتائب الخراسانية لحرب الأمين والجيوش العراقية فظفر ظفراً عظيماً كما قدمنا وقاد الخلافة للمأمون مذللة فاشتهر ذكره وطار صيته إلا أن الفضل بن سهل نفس عليه أن ينفرد بتلك الشهرة فحمل المأمون على تنحيته عن العراق وإرساله إلى الجزيرة لحرب نصر بن شبث، ولما شخص المأمون إلى بغداد ومات الفضل في الطريق أمر المأمون طاهراً أن يلقاه ببغداد فعرف له تلك السابقة وأحله المنزلة التي تليق به وولاه الجزيرة والشرط وجانبي بغداد ومعاون السواد.

كان الذي يتولى خراسان في ذلك الوقت غسان بن عباد فبلغ المأمون أن عبد الرحمن المطوعي جمع جمعاً بنيسابور ليقاتل بهم الحرورية بغير أمر والي خراسان فتخوفوا أن يكون ذلك لأصل عمل عليه وأن يكون بدء نار يستطير شرارها إذا لم تتدارك برجل قوي الشكيمة ناهض العزم يتولى أمر خراسان ولم يكن بالحضرة من يماثل طاهر فاختاره المأمون لذلك وولاه من حلوان إلى أقصى عمل المشرق فتوجه إلى ولايته وساسها أحسن سياسة وأعظم شهادة له ما ذكره الطيفوري عن يحيى بن أكثم عن المأمون أنه كان يقول: ما حابى طاهر في جميع ما كان فيه أحداً ولا مالأ أحداً ولا داهن ولا وهن ولا ونى ولا قصر في شيء وفعل في جميع ما ركن إليه ووثق به فيه أكثر

مما ظن به وأمله وأنه لا يعرف أحداً من نصحاء الخلفاء وكفاتهم فيمن سلف عصره ومن بقي في أيام دولته على مثل طريقته ومناصحته وغنائه وإجزائه قال: كان يحلف على صدق ما يقول في ذلك مجتهداً مؤكداً لليمين على نفسه.

وكان لطاهر استقلال بحكم خراسان يؤدي الخراج عن عمله وعليه والي بريد يكتب إلى المأمون بأخباره قالوا: كان طاهر يتمنى أن يخطب على منبر مرو فوليها (سنة ٢٠٥) وخطب بهم في سنة سبع ولم يصل بهم إلا ذلك اليوم فإنه صعد المنبر فحمد اللّه وأثنى عليه ولم يدع للمأمون فكتب والي البريد إلى المأمون بذلك وفي تلك الليلة أصابته حمى وحرارة فوجد ميتاً على فراشه فكتب صاحب البريد بوفاته ولا نحسب ما ظن بطاهر من أنه أراد خلع المأمون حقاً فإنه لم يكن هناك داع إلى ذلك مطلقاً.

وقد استمر ملك البيت الطاهري بخراسان من (سنة ٢٠٥) إلى (سنة ٢٥٩) حيث سقطت على يد يعقوب بن الليث الصفار وهي أول الدول استقلالاً بالمشرق وأحسنها علاقة بدولة الخلافة ببغداد والسبب في دوام هذا التحسن أن آل طاهر كان لهم مع خراسان ولاية الشرطة ببغداد ومن أجل ذلك كان الاتصال دائماً بين مرو وبغداد.

عبد اللّه بن طاهر: ولد عبد اللّه (سنة ١٨٢) في خلافة الرشيد ونشأ نشأة مجيدة وكان عمره حين سطع نجم والده في حوادث المأمون نحو (١٧ سنة) فتربى في كنف المأمون فخرج شهماً نبيلاً أديباً وكان المأمون يحبه حباً جماً ولاه حرب نصر بن شيث بعد انصراف أبيه عن ذلك الوجه فقام بما أمر به خير قيام ورد نصراً إلى طاعته بعد أن حصره وضيق عليه وكان مع قيامه بذلك خليفة لأبيه طاهر في الشرطة وأعمال بغداد فاستخلف على ذلك عمه إسحاق بن إبراهيم بن مصعب.

ولما فرغ من أمر نصر أمره المأمون أن يسير إلى مصر لاضطراب كان فيها من فتنة عبيد اللّه بن السري أمير مصر وفتنة جالية الأندلسيين بالإسكندرية فذهب إليها واستنزل عبيد اللّه بن السري من معاقله بعد أن أذله وأجلى الأندلسيين عما غلبوا عليه. قال يونس بن عبد الأعلى أحد علماء الحديث من أهل مصر. قدم علينا من قبل المشرق فتى حدث ـ يعني عبد اللّه بن طاهر ـ والدنيا عندنا مفتونة قد غلب على كل ناحية من بلادنا غالب والناس منهم في بلاء فأصلح الدنيا البريء وأخاف السقيم واستوثقت له الرعية بالطاعة. وكتب إليه أحمد بن يوسف وزير المأمون إذ ذاك يهنئه بذلك الفتح. بلغني أعز اللّه الأمين ما فتح اللّه عليك وخروج ابن السري إليك فالحمد للّه الناصر لدينه المعز لدولة خليفته على عباده المذل لمن عند عنه وعن حقه ورغب عن طاعته ونسأل اللّه أن يظاهر له النعم ويفتح له بلدان الشرك والحمد للّه على ما وليك به مذ ظعنت لوجهه فإنا ومن قبلنا نتذاكر سيرتك في حربك وسلمك ونكثر العجب

لما وفقت له من الشدة والليان في مواضعهما ولا نعلم سائس جند ورعية عدل بينهم عدلك ولا عفا بعد المقدرة عمن آسفه وأضفنه عفوك ولقلما رأينا ابن شرف لم يلق بيده متكلاً على ما قدمت له أبوته ومن أوتي حظاً وكفاية وسلطاناً وولاية لم يخلد إلى ما عفا له حتى يخل بمساماة ما أمامه ثم لا نعلم سائساً استحق النجح لحسن السيرة وكف معرة الأتباع استحقاقك وما يجيز أحد ممن قبلنا أن يقدم عليك أحداً بهوى عند إلحاقه والنازلة المتصلة فليهنك منة اللّه ومزيده ويسوغك اللّه هذه النعمة التي حواها لك بالمحافظة على ما به تمت لك من التمسك بحبل إمامك ومولاك ومولى جميع المسلمين وملاك وإيانا بالعيش ببقائه وأن تعلم أنك لم تزل عندنا وعند من قبلنا مكرماً مقدماً معظماً وقد زادك اللّه في أعين الخاصة والعامة جلالة وبجالة فأصبحوا يرجونك لأنفسهم ويعدونك لأحداثهم ونوائبهم وأي جور أن يوفقك اللّه لمحابه كما وفق لك صنعه وتوفيقه فقد أحسنت جوار النعمة فلم تطغك ولم تزدد إلا تذللاً وتواضعاً فالحمد للّه على ما أنالك وأبلاك وأودع فيك والسلام.

وكتب له المأمون كتاباً وكتب في أسفله:

أخي أنت ومولاي ... ومن أشكر نعماه
فما أحببت من أمر ... فأنى الدهر أهواه
وما تكره من شيء ... فإني لست أرضاه
لك اللّه على ذاك ... لك اللّه لك اللّه

ولما عاد إلى مصر (سنة ٢١٢) ولاه المأمون الجبال وأرمينية وأذربيجان لمحاربة بابك وصادف أنه مات بعد خروجه طلحة بن طاهر بن الحسين فولاه المأمون مكانه واستمر والياً حتى مات (سنة ٢٣٠) في عهد الواثق.

العلم في عهد المأمون:

كان عهد المأمون من أرقى عهود العلم في العصر العباسي وذلك لأمرين الأول أن المأمون نفسه قد اشتغل بالعلم وأمعن فيه حينما كان بمرو فقد جالس كثيراً من العلماء وأخذ عنهم جملة صالحة من العلوم الدينية كالحديث والتفسير والفقه واللغة العربية فكان لذلك محباً للعلم ولازدياد نشره. الثاني: ما كان من الأمة نفسها إذ ذاك حيث وجد فيها شوق إلى العلم والبحث وكثرة العلماء في كل مصر من أمصار المسلمين كما سنبينه فتوافق رأي الإمام واستعداد الأمة فكان من وراء ذلك ما نقصه من تقدم حركة العلم ورفعة بغداد.

العلوم التي نريد بيان حالها نوعان: علوم دينية وعلوم عقلية.

أما العلوم الدينية فمنها ما يرجع لأصل الدين وهو علم الكلام أو التوحيد ومنها ما يرجع إلى

أحكام الأعمال وهي الفقه وأصوله وأدلة تلك الأحكام من القرآن والحديث:

ظهر في ذلك الوقت جمهور من فطاحل ورؤساء المتكلمين توغلوا في البحث في أصول الدين والعقائد وحكموا في البحث عقولهم فأنتج لهم ذلك اعتقادات تخالف ما عليه عامة المسلمين وجمهور علمائهم المعروفين بأهل الحديث وهم الذين يستمدون آراءهم من النصوص السمعية كتاب أو سنة أو أثر من آثار السلف وكان أول ما نشأ ذلك الخلاف في مدينة البصرة وامتد منها إلى بغداد. وجد بالبصرة واصل بن عطاء الغزال ثم عمرو بن عبيد الذي كان المنصور يحبه ويفضله على جميع معاصريه من العلماء حتى قال فيه:

كلكم يمشي رويد كلكم طالب صيد غير عمرو بن عبيد

ولما مات رثاه ولم يسمع بخليفة رثى من دونه سواه.

ثم أبو الهذيل محمد بن الهذيل العلاف وإبراهيم بن سيار النظام وبشر بن غياث المريسي وعمر بن بحر الجاحظ وثمامة بن أشرس وغيرهم من رؤوس الاعتزال وأصحاب الآراء والأقوال وكانوا يتكلمون في كثير من مسائل أصول الدين وأهم هذه المسائل التي خالفوا فيها الجمهور أهل الحديث:

١ ـ مسألة القدر وأفعال العباد فكانوا يقولون إن أفعال العباد مخلوقة لهم لا للّه ومن أجل ذلك يستحقون عليها الثواب والعقاب وأن المقصود بالقضاء والقدر ما يمنحه اللّه لعباده من التوفيق والخذلان ويقابل ذلك رأي العامة أن أفعال العباد مخلوقة للّه ليس للعباد منها إلا جرياتها على أيديهم وهذا ما أطلقوا عليه اكتساب العباد.

٢ ـ صفات اللّه تعالى فقد نزه المعتزلة اللّه عن ثبوت صفات قائمة بذاته من القدرة والإرادة والسمع والبصر والحياة والكلام وقالوا: إن اللّه قادر بذاته والذي أداهم إلى ذلك الخوف من تعدد القدماء ويقابل ذلك قول العامة: إن اللّه قدير بقدرة وهي صفة قائمة بالذات ليست عين الذات ولا غيرها. وتفرع عن ذلك قولهم في القرآن أهو قديم لأنه صفة للّه جل ذكره كما تقوله العامة أم هو حادث مخلوق للّه كسائر المخلوقات لأنه ليس بصفة للّه بل يخلق اللّه هذه الحروف والأصوات في جسم محدث يسمعه النبي منه وهذا عندهم هو الوحي.

وهاتان المسألتان أهم ما كان يدور فيه النزاع بين المعتزلة وفقهاء العامة.

وكما كان الاختلاف قد ظهر في أصول الدين التي تشابه ما ذكرنا كان قد ظهر في الفقه الذي هو أحكام أفعال العباد فكان من أئمة الفقهاء أهل حديث وأهل رأي كما بيناه في تاريخ التشريع ووجد من كل من الفريقين علماء أجلاء وفقهاء عظام اعترف لهم الناس بالتقدم ونحوا نحوهم في التشريع واقتدوا بهم منهم من سبق عصر المأمون كأبي حنيفة وأصحابه ومالك وأصحابه ومنهم من

كان في أول عصره كالشافعي محمد بن إدريس الذي توفي في السنة التي دخل فيها المأمون بغداد. والفرق بين هؤلاء في اختلافهم وبين أولئك أن المستنبطين من الفقهاء كانوا لا ينكر بعضهم على بعض نتائج استنباطهم بل كانوا يرون أن كل مجتهد مكلف أن يعمل بنتيجة اجتهاده وليس له أن يقلد غيره فقد سوغ بعضهم لبعض الاجتهاد أما المختلفون في أصول الدين فكانوا على غير ذلك كل فرقة ترى النقص في الأخرى وربما تلعنها فأهل الحديث يقولون عن المعتزلة إنهم مبتدعة فارقوا ما عليه سلف الأمة وما تدل عليه الأخبار والآثار وأولئك يقولون عن أهل الحديث إنهم عامة يتخذون ما يظهرون به حلية لينفقوا أمام العامة وربما نالوا منهم أكثر من ذلك.

وكان هناك اختلافات أخرى ظهر القول فيها وهي مسألة الخلافة ومن يستحقها بعد رسول اللّه ﷺ فكان الجمهور يرى أن الخلفاء الراشدين مرتبون في الاستحقاق ترتيبهم في تولي الخلافة ومن ورائهم أصناف الشيعة يرون أن علياً هو أولى الناس بالخلافة بعد رسول اللّه ﷺ ثم يستحقها من بعده أولاده وهم مختلفون في الحكم على من سبق علياً من الخلفاء فمنهم الغالي ومنهم الهين القول يرى أنهم أخذوا ما ليس لهم ولكن ولوا فعدلوا فلا محل لانتقاصهم ووجد بسبب ذلك شيعتان مختلفتان الإمامية والزيدية ثم تشعبت الطرق بكل من الفرقتين فوجد من كل منهما مذاهب وآراء.

ولم يكن قبل المأمون لأصحاب المذاهب المخالفة لما عليه العامة حرية البحث وإظهار الآراء بل كانوا يخشون العامة ولم تكن لهم قوة من الخلفاء يرتكزون عليها لأن الخلفاء كانوا كذلك يراعون العامة لأن القوة فيها فلما جاء المأمون رأى أن يجمع إليه العلماء من المتكلمين والفقهاء وأهل الحديث ويجعل لهم مجالس المناظرة ويظهر أنه كان يرمي إلى أن يتفق هؤلاء العلماء على رأي فيما يلقى عليهم من المسائل ليحمل الجمهور على ذلك الرأي وتتفق كلمة الأمة ولا سيما فيما يتعلق بمباحث أصول الدين ومباحث الإمامة.

قال الطيفوري في تاريخ بغداد قال التغلبي سمعت يحيى بن أكثم يقول: أمرني المأمون عند دخوله بغداد أن أجمع له وجوه الفقهاء وأهل العلم من أهل بغداد فاخترت له من أعلامهم أربعين رجلاً وأحضرتهم وجلس لهم المأمون فسأل عن مسائل وأفاض في فنون الحديث والعلم فلما انقضى ذلك المجلس الذي جعلناه للنظر في أمر الدين قال المأمون: يا أبا محمد كره هذا المجلس الذي جعلناه للنظر طوائف من الناس بتعديل أهوائهم وتزكية آرائهم فطائفة عابوا علينا ما نقول في تفضيل علي بن أبي طالب رضي اللّه عنه وظنوا أنه لا يجوز تفضيل علي إلا بانتقاص غيره من السلف واللّه ما أستحل أو قال ما أستجيز أن انتقص الحجاج فكيف السلف الطيب. وإن الرجل ليأتيني بالقطعة من العود أو بالخشبة أو بالشيء الذي لعل قيمته لا تكون إلا درهماً أو نحوه

فيقول إن هذا كان للنبي ﷺ أو قد وضع يده عليه أو شرب فيه أو مسه وما هو عندي بثقة ولا دليل على صدق الرجل إلا أني بفرط النية والمحبة أقبل ذلك فأشتريه بألف دينار وأقل وأكثر ثم أضعه على وجهي وعيني وأتبرك بالنظر إليه وبمسه فأستشفي به عند المرض يصيبني أو يصيب من أهتم به كصيانتي نفسي وإنما هو عود لم يفعل هو شيئاً ولا فضيلة له يستوجب بها المحبة إلا ما ذكر من مس رسول اللّه ﷺ له فكيف لا أرعى حق أصحابه وحرمة من قد صحبه وبذل ماله ودمه دونه وصبر معه أيام الشدة وأوقات العسرة وعادى العشائر والعمائر والأقارب وفارق الأهل والأولاد واغترب من داره ليعز اللّه دينه ويظهر دعوته؟ يا سبحان اللّه واللّه لو لم يكن هذا في الدين معروفاً لكان في الأخلاق جميلاً وإن من المشركين لمن يرعى في دينه من الحرمة ما هو أقل من هذا معاذ اللّه مما فطن به الجاهلون. ثم لم ترض هذه الطائفة بالعيب لمن خالفها حتى نسبته إلى البداية في تفضيله رجلاً على أخيه ونظيره ومن يقاربه في الفضل وقد قال اللّه جل من قائل: ﴿**ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض**﴾ [1] ثم وسع لنا في جهل الفاضل من المفضول فما فرض علينا ذلك ولا ندبنا إليه إذ شهدنا لجماعتهم بالنبوة فمن دون النبيين من ذلك بعد إذ شهد لهم بالعدالة والتفضيل أمر لو جهله جاهل رجونا أن لا يكون اجترح إثماً ـ وهم لم يقولوا بدعة فيمن قال يقول واحد من أصحاب النبي ﷺ وشك الآخر واحتج في كسره وإبطاله في الأحكام في الفروج والدماء والأموال التي النظر فيها أوجب من النظر في التفضيل فيغلط في مثل هذا أحد يعرف شيئاً أو له روية أو حسن نظر أو يدفعه من له عقل بل معاند يريد الإلطاط أو متبع لهواه ذاب عن رياسة اعتقدها وطائفة قد اتخذ كل رجل منهم مجلساً اعتقد به رياسة لعله يدعو فئة لضرب من البدعة ثم لعل كل رجل منهم يعادي من خالفه في الأمر الذي قد عقد به رياسة بدعة ويشيط بدمه وهو قد خالفه من أمر الدين بما هو أعظم من ذلك إلا أن ذلك أمر لا رياسة له فسالمه عليه وأمسك عند ذكر مخالفته إياه فيه فإذا خولف في نحلته ولعلها مما وسع اللّه في جهله أو قد اختلف السلف في مثله فلم يعاد بعضهم بعضاً ولم يروا في ذلك إثماً فلعله يكفر مخالفه أو يبدعه أو يرميه بالأمور التي حرمها اللّه عليه من المشركين دون المسلمين بغيًا عليهم وهم المترقبون الفتن الراسخون فيها ليتهبوا أموال الناس ويستحلوها بالغلبة وقد حال العدل بينهم وبين ما يريدون. يزأرون على الفتنة زئير الأسد على فرائسها ـ وإني لأرجو أن يكون مجلسنا هذا بتوفيق اللّه وتأييده ومعونته على إتمامه سبباً لاجتماع هذه الطوائف على ما هو أرضى وأصلح للدين. إما شاك فيتبين ويتثبت فينقاد طوعاً وإما معاند فيرد بالعدل كرهاً.

وروى أيضاً عن بشر المريسي قال: حضرت عبد اللّه المأمون أنا وثمامة ومحمد

(١) سورة: الإسراء، الآية: ٥٥.

ابن أبي العباس وعلي بن الهيثم فتناظروا في التشيع فنصر محمد بن أبي العباس الإمامية ونصر علي بن الهيثم الزيدية وجرى الكلام بينهما إلى أن قال محمد لعلي: يا نبطي ما أنت والكلام. فقال المأمون وكان متكئاً فجلس: الشتم عي والبذاءة لؤم إنا قد أبحنا الكلام وأظهرنا المقالات فمن قال بالحق حمدناه من جهل ذلك وقفناه ومن جهل الأمر حكمنا فيه بما يجب فاجعلا بينكما أصلاً فإن الكلام فروع فإذا افترعتم شيئاً رجعتم إلى الأصول.

فيستفاد من هذين الخبرين أمور جديرة بإمعان النظر..

١ ـ أن المأمون أباح الكلام وأظهر المقالات لدرجة قلما تجدها في أمة وما ظنك بخليفة عباسي تناظر في مجلسه اثنان في الإمامية فينصر أحدهما الإمامية والثاني الزيدية وهذان المذهبان كلاهما إن صحا يذهبان بما في أيدي آل العباس من الإمامة ولم يمنعه ذلك من ترك حرية القول لهم.

٢ ـ أن طوائف من الناس عابت ذلك على المأمون لأنه علم منه الموافقة على بعض آراء تخالف رأي العامة كما كان مذهبه في تفضيل علي بن أبي طالب رضي اللّه عنه على سائر الخلفاء واتهموه بسبب ذلك بما هو منه بريء وهو انتقاص غيره من الصحابة وقد دافع المأمون عن نفسه في ذلك بما يغلب على الظن أنه صادق فيه.

٣ ـ أن المأمون كان يرى في علماء وقته أنهم إنما كانوا ينكرون ما ينكرون في الآراء التي كانت لهم سبب رياسة ولو كانت تافهة لا يترتب عليها في الدين أثر ويغفرون لمن خالفهم في الأمور الجسيمة التي تترتب عليها الآثار العظيمة ما دامت لا ترتبط بشيء مما يعتقدون به رياسة عند العامة.

٤ ـ أن المأمون كان يظن أنه بمجلس المناظرة هذا يتوصل إلى إزالة الخلاف بين العلماء فيما اختلفوا فيه فإن الشاك يتبين أو يتثبت والمعاند يكره.

وهذا الذي فعله المأمون أول تجربة وآخرها لأنه لم يفكر أحد ممن قبله في مثل هذا ولما انتهت تجربته بالفشل لم يعد أحد الخلفاء إلى مثله.

كانت قوة فقهاء العامة محكمة العرى لأن العامة كانت تجلهم وتحترم آراءهم كما أن الفقهاء كانوا يحوطون معتقدات الجمهور ويقفون ضد من يعلن مخالفتها. أدت المناقشات الكثيرة التي بين يدي المأمون إلى أنه كان يرى بعض آراء المعتزلة لا كلها فإنه لم يكن قدرياً. روى الطيفوري عن محمد بن إسحاق بن إبراهيم اليزيدي أنه سمع ثمامة يقول إن المأمون عامي لتركه القول بالقدر، وإنما الذي صار إليه من آرائهم القول بخلق القرآن وأظهر رأيه ذلك (سنة ٢١٢) وكان يظن

كما قدمنا أنه متى أعلن رأيه للعلماء وفقهاء الأمة يجيبوه إلى إعلان رضاهم به، فكانت النتيجة عكس ما ظن فإنهم تكلموا فيه وقالوا إنه مبتدع وغلا بعضهم في ذلك فقال بكفر من رأى خلق القرآن وبذلك تجسمت هذه المسألة التي لم تكن تستحق تجسيماً إذا نظر إليها بشيء من التدقيق ولم تكن هناك أشياء أخرى غير المسألة العلمية توسع مسافة الخلاف بين المأمون ومن شايعه وبين فقهاء الجمهور.

مرت سنوات أربع والخلاف يتسع والكلام من الفريقين في الآخر يزيد حتى كانت (سنة ٢١٨) فرأى المأمون أن يستعين بسلطانه في رد الفقهاء إلى رأيه حتى لا يكون معترفاً بفشله فيما شرع فيه فكتب كتاباً وهو غاز إلى إسحاق بن إبراهيم عامله على بغداد (محافظها) بيّن فيه أن واجبه بصفته إماماً للمسلمين أن يجتهد في إقامة الدين ثم ذكر ما عليه الجمهور من حشو الرعية وسفلة العامة من الجهالة باللّه حتى ساووا بينه وبين ما أنزل من القرآن فأطبقوا على أنه قديم مع النصوص الدالة على خلاف ذلك ثم قال (ثم هم الذين جادلوا بالباطل فدعوا إلى قولهم ونسبوا أنفسهم إلى السنة وفي كل فصل من كتاب اللّه قصص من تلاوته مبطل لقولهم ومكذب دعواهم يرد عليهم قولهم ونحلتهم. ثم أظهروا مع ذلك أنهم أهل الحق والدين والجماعة وأن من سواهم أهل الباطل والكفر والفرقة فاستطالوا بذلك على الناس وغروا به الجهال حتى مال قوم من أهل السمت الكاذب والتخشع لغير اللّه والتقشف لغير الدين إلى موافقتهم عليه ومواطأتهم على سيىء آرائهم تزينا بذلك عندهم وتصنعا للرياسة والعدالة فيهم. فتركوا الحق إلى باطلهم واتخذوا دين اللّه وليجة إلى ضلالتهم فقبلت بتزكيتهم لهم شهادتهم ونفذت أحكام الكتاب بهم على دغل دينهم ونغل أديمهم وفساد نياتهم ويقينهم وكان ذلك غايتهم التي إليها جروا وإياها طلبوا في متابعتهم والكذب على مولاهم) وبعد أن أعطاهم ما يستحقون على رأيه من مثل هذه القوارع قال لإسحاق: فاجمع بحضرتك من القضاة واقرأ عليهم كتاب أمير المؤمنين هذا إليك فابدأ بامتحانهم فيما يقولون وتكشيفهم عما يعتقدون في خلق اللّه القرآن وإحداثه وأعلمهم أن أمير المؤمنين غير مستعين في عمله ولا واثق فيما قلده اللّه واستحفظه من أمور رعيته بمن لا يوثق بدينه وخلوص توحيده ويقينه فإذا أقروا بذلك ووافقوا أمير المؤمنين فيه وكانوا على سبيل الهدى والنجاة فمرهم بنص من يحضرهم من الشهود على الناس ومساءلتهم عن عملهم في القرآن وترك إثبات شهادة من لم يقر أنه مخلوق محدث ولم يره والامتناع من توقيعها عنده واكتب إلى أمير المؤمنين بما يأتيك عن قضاة أهل عملك في مسألتهم والأمر لهم بمثل ذلك ثم أشرف عليهم وتفقد آثارهم حتى لا تنفذ أحكام اللّه إلا بشهادة أهل البصائر في الدين والإخلاص للتوحيد واكتب إلى أمير المؤمنين بما يكون في ذلك إن شاء اللّه وكتب في شهر ربيع الأول (سنة ٢١٨).

وكتب إلى إسحاق أن يشخص إليه سبعة نفر من كبار مشايخ الجمهور منهم محمد ابن سعد كاتب الواقدي ويحيى بن معين وأبو خيثمة زهير بن حرب وأحمد بن إبراهيم الدورقي فاشخصوا إليه فامتحنهم وسألهم عن خلق القرآن فأجابوه جميعاً أن القرآن مخلوق فأشخصهم إلى مدينة السلام وأحضرهم إسحاق بن إبراهيم داره فشهر أمرهم وقولهم بحضرة الفقهاء والمشايخ من أهل الحديث فأقروا بمثل ما أجابوا به المأمون فخلي سبيلهم.

وكتب المأمون إلى إسحاق كتاباً ثانياً زاد فيه على الكتاب الأول قال فيه في صفة من خالفو: وليس يرى أمير المؤمنين لمن قال بهذه المقالة حظاً في الدين ولا نصيباً من الإيمان واليقين ولا يرى أن يحل أحد منهم محل الثقة في أمان ولا عدالة ولا شهادة ولا صدق في قول ولا حكاية ولا تولية شيء في أمر الرعية.

فجمع إسحاق نحو ثلاثين رجلاً من هؤلاء العلماء وهذا نموذج من أجوبتهم لإسحاق.

قال لبشر بن الوليد ما تقول في القرآن ـ فقال قد عرفت مقالتي لأمير المؤمنين غير مرة ـ قال فقد تجد من كتاب أمير المؤمنين ما قد ترى ـ قال ـ أقول القرآن كلام اللّه ـ قال لم أسألك عن هذا أمخلوق هو ـ قال اللّه خالق كل شيء ـ قال أما القرآن شيء ـ قال هو شيء ـ قال فمخلوق هو ـ قال ليس بخالق ـ قال ليس أسألك عن هذا أمخلوق هو ـ قال ما أحسن غير ما قلت لك واقد استعفيت أمير المؤمنين ألا أتكلم فيه وليس عندي غير ما قلت لك.

وقال لعلي بن أبي مقاتل ما تقول يا علي ـ قال قد سمعت كلامي لأمير المؤمنين في هذا غير مرة وما عندي غير ما سمع ـ فقال له القرآن مخلوق ـ قال القرآن كلام اللّه ـ قال لم أسألك عن هذا ـ قال هو كلام اللّه وإن أمرنا أمير المؤمنين بشيء سمعنا وأطعنا.

وقال لأبي حسان الزيادي القرآن مخلوق هو ـ قال القرآن كلام اللّه ـ واللّه خالق كل شيء وما دون اللّه مخلوق وأمير المؤمنين إمامنا وبسببه سمعنا عامة العلم وقد سمع ما لم نسمع وعلم ما لم نعلم وقد قلده اللّه أمرنا فصار يقيم حجنا وصلاتنا ونؤدي إليه زكاة أموالنا ونجاهد معه ونرى إمامته إمامة وإن أمرنا ائتمرنا وإن نهانا انتهينا وإن دعانا أجبنا ـ قال القرآن مخلوق هو ـ فأعاد إليه حسان مقالته ـ قال إن هذه مقالة أمير المؤمنين ـ قال قد تكون مقالة أمير المؤمنين ولا يأمر بها الناس ولا يدعوهم إليها وإن أخبرتني أن أمير المؤمنين أمرك أن أقول قلت ما أمرتني فإنك الثقة المأمون عليه فيما أبلغتني عنه من شيء فإن أبلغتني عنه بشيء صرت إليه ـ قال ما أمرني أن أبلغك شيئاً ـ قال قد يكون قوله كاختلاف أصحاب رسول اللّه ﷺ في الفرائض والمواريث ولم يحملوا الناس عليها.

وكان إسحاق يكتب مقالة كل قائل فلما أتم امتحانهم جميعاً أرسل إلى المأمون نتيجة الامتحان ولما رأى المأمون هذه المحاولة منهم غاظه ذلك وكتب في شأنهم كتاباً ثالثاً قرع فيه أولئك العلماء أشد التقريع وذكر كل واحد منهم بما يعلمه فيه من النكوب عن الجادة في عمله أو خلقه كأنه يعرف دخائل كل منهم معرفة خبير فمن ذلك قوله:

وأما الذيال ابن الهيثم فأعلمه أنه كان في الطعام الذي كان يسرقه في الأنبار، وفيما يستولي عليه من أمر مدينة أمير المؤمنين أبي العباس ما يشغله وأنه لو كان مقتفياً آثار سلفه، وسالكاً مناهجهم ومحتذياً سبيلهم لما خرج إلى الشرك بعد إيمانه.

وأما الفضل بن غانم فأعلمه أنه لم يقف أمير المؤمنين على ما كان منه بمصر وما اكتسب من الأموال في أقل من سنة وما شجر بينه وبين المطلب بن عبد اللّه في ذلك فإنه من كان شأنه شأنه وكانت رغبته في الدنيا والدرهم رغبته فليس بمستنكر أن يبيع إيمانه طمعاً فيهما وإيثاراً لعاجل نفعهما وأنه مع ذلك القائل لعلي بن هشام ما قاله والمخالف له فيما خالفه فيه، فما الذي حال به عن ذلك ونقله إلى غيره.

وأما الفضل بن الفرخان فأعلمه أنه حاول بالقول الذي قاله في القرآن أخذ الودائع التي أودعها إياه عبد الرحمٰن بن إسحاق وغيره تربصاً بمن استودعه وطمعاً في الاستكثار لما صار في يده ولا سبيل عليه عن تقادم عهده وتطاول الأيام به، فقل لعبد الرحمٰن بن إسحاق لا جزاك اللّه خيراً عن تقويتك مثل هذا وإيمانك إياه وهو معتقد للشرك منسلخ عن التوحيد.

وأما محمد بن حاتم وابن نوح والمعروف بأبي معمر فأعلمهم أنهم مشاغيل بأكل الربا عن الوقوف على التوحيد وأن أمير المؤمنين لو لم يستحل محاربتهم في اللّه ومجاهدتهم إلا لإربائهم وما نزل به كتاب اللّه في أمثالهم لاستحل ذلك، فكيف بهم وقد جمعوا مع الإرباء شركاً وصاروا للنصارى مثلاً؟

وأما سعدويه الواسطي فقل له قبح اللّه رجلاً بلغ به التصنع للحديث والتزين به والحرص على طلب الرياسة فيه أن يتمنى وقت المحنة فيقول بالتقريب بها متى يمتحن فيجلس للحديث.

وأما المعروف بسجادة وإنكاره أن يكون سمع ممن كان يجالس من أهل الحديث وأهل الفقه القول بأن القرآن مخلوق، فأعلمه أنه في شغله بإعداد النوى وحكمه لإصلاح سجادته وبالودائع التي دفعها إليه علي بن يحيى وغيره ما أذهله عن التوحيد وألهاه، ثم سله عما كان يوسف بن أبي يوسف ومحمد بن الحسن يقولانه إن كان شاهدهما وحالسهما.

وقد ذكر مثل ذلك في غير هؤلاء؛ وخلاصة ما يطلب في هذا الكتاب أنه ذكر رجلين هما

بشر بن الوليد وإبراهيم بن المهدي أمره أن يستتيبهما فإن تابا أشهر أمرهما وإلا ضرب أعناقها، أما من عداهما فإن لم يقولوا بخلق القرآن حملهم جميعاً موثقين إلى عسكر أمير المؤمنين. وقال في ختام هذا الكتاب ـ وقد أنفذ أمير المؤمنين كتابه هذا في خريطة بندارية ولم ينتظر به اجتماع الكتب الخرائطية معجلاً به تقرباً إلى اللّه عزّ وجلّ بما أصدر من الحكم ورجا ما اعتمد وإدراك ما أمل من جزيل ثواب اللّه عليه فأنفذ لما أتاك من أمر أمير المؤمنين وعجل إجابة أمير المؤمنين بما يكون منك في خريطة بندارية مفردة عن سائر الخرائط لتعرف أمير المؤمنين ما يعملونه إن شاء اللّه وكتب (سنة ٢١٨).

فأحضرهم إسحاق مرة ثانية وسألهم فأجابوا جميعاً أن القرآن مخلوق ما عدا أربعة منهم فأمر بهم فشدوا في الحديد وفي اليوم الثاني أعاد عليهم المحنة فأجابه واحد من الأربعة فأطلقه وفي اليوم الثالث فعل كذلك فأجابه ثان وبقي اثنان صمما على عدم الإجابة وهما أحمد بن حنبل ومحمد بن نوح فوجه بهما إسحاق إلى طرسوس. وبعد ذلك ورد كتاب من المأمون على إسحاق يقول له فيه: إن سليمان بن يعقوب صاحب الخبر كتب إليه أن بشر بن الوليد تأول الآية التي أنزلها اللّه تعالى في عمار بن ياسر ﴿إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان﴾ (١) ـ وقد أخطأ التأويل إنما عنى اللّه عزّ وجلّ بهذه الآية من كان معتقد الإيمان مظهر الشرك فأما من كان يعتقد الشرك مظهر الإيمان فليست هذه له، فأشخصهم جميعاً إلى طرسوس ليقيموا بها إلى خروج أمير المؤمنين من بلاد الروم فأشخصهم جميعاً ولما وافوا الرقة بلغهم وفاة المأمون فأقامهم والي الرقة بها ثم أعيدوا إلى مدينة السلام.

هذه كانت النتيجة لما شرع فيه المأمون وهي نتيجة تضاد ما قصده من تأليف القوم وجمعهم على رأي واحد فيما اختلف فيه من المسائل وقد كبر الخلاف في مسألة من أهون المسائل وأيسرها حلاً. ولكن المأمون قال: إن أصغر المسائل متى كان أساساً لنحله أو سبباً لرياسة فإن الخلاف يعظم بسببه أما أعضل الأمور فإن الخلاف الشديد لا يجد إليه سبيلاً إذا لم يكن أساساً لنحلة أو سبباً لرياسة وهذا يكاد يكون صحيحاً. ومع اعترافنا بأن الخلاف لا محل له في هذه المسألة لا نرى للمأمون حقاً وهو سلطان الأمة أن يصادرها فيما تعتقد على الشكل الذي سنه مما بيناه.

وليعلم أن جميع الذين تهاونوا مع المأمون في مسألة القرآن أهمل المحدثون أمرهم وأنزلوا رتبهم وعدوا ذلك عيباً من عيوبهم وقد كاد إمام المحدثين البخاري يصيبه أثر من آثار هذه النكبة فإن فريقاً من العلماء رأى أن يفصل بين لفظ القرآن ومعناه فكان يقول لفظي بالقرآن مخلوق وكان البخاري ممن يقول بذلك فاضطهده محمد بن يحيى الذهلي إمام المحدثين بنيسابور حتى خرج

(١) سورة: النحل، الآية: ٦.

البخاري عنها خوفاً من العامة أن تبطش به وكذلك ترك مسلم بن الحجاج مجلس محمد بن يحيى من أجل ذلك فإنه لما سمع محمداً يقول من قال: لفظي بالقرآن مخلوق فلا يقربن مجلسنا، أخذ كساءه وخرج. أما الذين وقفوا في المحنة وثبتوا على آرائهم ولم يتساهلوا فإنهم استحقوا من العناية والتكريم ما لا مزيد عليه والعلم المفرد فيهم هو الإمام أحمد بن حنبل فإن هذه الحادثة شرفته بين القوم شرفاً عظيماً.

ولم يكتف المأمون بما كان في حياته بل أوصى إلى أخيه المعتصم الذي استخلفه من بعده بأن يسير بسيرته في القرآن فلم يجد المعتصم بدا من أن يتبع هذه الوصية مع أنه لم يكن في ميدان العلم كبير جولة ولكن وصية أخيه وبقاء رؤوس الاعتزال بجانبه جعلاه يتشدد في الأمر فأحضر أحمد بن حنبل وعرض عليه أن يقول كما قال غيره من العلماء فصمم على إنكار أن يكون القرآن مخلوقاً ولم يثنه عن ذلك ما لقيه من الضرب والتعذيب في مجلس المعتصم نفسه وكان أحمد يتردد بين ذلك وبين ضيق الحبوس وهو صابر محتسب.

وقد اتبع الواثق سيرة أبيه وعمه في هذه المحنة وبسببها حصلت فتنة أحمد بن نصر بن مالك بن الهيثم الخزاعي ومالك بن الهيثم كان أحد نقباء الدعوة العباسية وكان أحمد يغشاه أصحاب الحديث وكان يظهر المباينة لمن يقول القرآن مخلوق مع منزلة أبيه من السلطان في دولة بني العباس ويبسط لسانه فيما يقول ذلك مع غلظة من الواثق كانت على من يقول ذلك وكان أحمد إذا تكلم عن الواثق يقول ألا فعل هذا الكافر فحركه المطيفون به من أهل الحديث وحملوه على الحركة لإنكار القول بخلق القرآن وقصدوه دون غيره لما كان لأبيه وجده في دولة بني العباس من الأثر فرجوا استجابة العامة له والتفافهم عليه فيقال إنه أجاب إلى ذلك وسعى له في دعاء الناس رجلان ممن كان يغشاه فنجحا وألفا فرقتين إحداهما بالجانب الشرقي والأخرى بالجانب الغربي من بغداد واتعدوا ليلة ليضربوا فيها طبولهم للاجتماع صيحتها للوثوب بالسلطان فاتفق أن بعض المحافظين على الطبل انتبذ نبيذاً فلما أخذ منه ضرب على الطبل قبل الموعد المضروب بليلة فانتبه لصوت الطبل محمد بن إبراهيم بن مصعب خليفة صاحب الشرطة فأرسل يسأل عن سببه وبعد التدقيق عرف سر المؤامرة فتتبع القوم من ليلتهم فأخذوا وصيروا إلى الحبس وقبض على أحمد بن نصر أيضاً وحمل رؤوس القوم إلى الواثق بسامرا فجلس لهم الواثق مجلساً عاماً لامتحانهم ولما حضروا إليه لم يناظر الواثق أحمد بن نصر في الشعب ولا فيما رفع إليه من إرادة الخروج عليه لكنه سأله ما تقول في القرآن؟ قال: هو كلام الله ولم يزد على ذلك وبعد أخذ ورد أفتى الحاضرون بقتله فقام الواثق إليه بنفسه وقتله وصلب جسمه بسامرا وحمل رأسه إلى بغداد فنصب بها في الجانب الشرقي وجعل في أذنه رقعة فيها هذا رأس الكافر المشرك الضال وهو أحمد بن

نصر بن مالك ممن قتله اللّه على يدي عبد اللّه هارون الإمام الواثق باللّه أمير المؤمنين بعد أن أقام عليه الحجة في خلق القرآن ونفي التشبيه وعرض عليه التوبة ومكنه من الرجوع إلى الحق فأبى إلا المعاندة والتصريح والحمد للّه الذي عجل به إلى ناره وأليم عقابه وأن أمير المؤمنين سأله عن ذلك فأقره بالتشبيه وتكلم بالكفر فاستحل أمير المؤمنين دمه ولعنه.

وممن حمل إلى الواثق في هذه المحنة من علماء مصر أبو يعقوب يوسف بن يحيى البويطي أكثر أصحاب الشافعي الإمام رضي اللّه عنه نمى إلى الواثق أنه لا يقول بخلق القرآن فأرسل إلى والي مصر في امتحانه فامتحنه فلم يجب وكان الوالي حسن الرأي فيه فقال له قل فيما بيني وبينك قال إنه يقتدي بي مائة ألف ولا يدرون المعنى فلما امتنع أمر الواثق بحمله فحمل وسجن ببغداد حتى مات في سجنه (سنة ٢٣١).

واستمرت هذه المشكلة حتى ملها الواثق نفسه وتمنى لو يجد مخرجاً وانتقلت المسألة من الجد إلى الهزل ودخل عبادة المضحك على الواثق فقال: يا أمير المؤمنين أعظم اللّه أجرك في القرآن قال: ويلك القرآن يموت؟ قال: يا أمير المؤمنين كل مخلوق يموت باللّه يا أمير المؤمنين من يصلي بالناس التراويح إذا مات القرآن فضحك الواثق وقال: قاتلك اللّه ـ أمسك.

وجيء الواثق بشيخ مقيد فسأله ابن أبي دؤاد عن قوله في القرآن فقال له الشيخ لم تنصفني المسألة أنا أسألك قبل الجواب هذا الذي تقوله يا ابن أبي دؤاد من خلق القرآن شيء علمه رسول اللّه ﷺ وأبو بكر وعمر وعثمان وعلي رضي اللّه عنهم أو جهلوه ـ فقال بل علموه قال فهل دعوا إليه الناس كما دعوتهم أنت أو سكتوا ـ قال بل سكتوا ـ قال فهلا وسعك ما وسعهم من السكوت ـ فسكت ابن أبي دؤاد وأعجب الواثق كلامه وأمر بإطلاقه، وقام وهو يقول: هلا وسعك ما وسعهم يكرر هذه الكلمة.

كانت تلك الحوادث مما أخمد نار المحنة، ولذلك لما جاء المتوكل بعد الواثق أمر برفع المحنة وأن يترك الناس وشأنهم فيما يعتقدون وحسناً فعل وقد استحق المتوكل ثناء الجمهور العظيم بسبب ذلك وتجاوزوا له عما كان من هفواته.

يمكن القول بأن هذه المجالس التي تعقد للمناظرة رجاء الوصول إلى الوفاق إنما تقر الخلاف وتؤكده لا تزيله متى اتصل بهذا الخلاف شيء من الرياسة في الدنيا. وتاريخ المجامع والمجالس التي كان من شأنها البحث في الأمور الدينية شاهد بذلك.

علوم الصناعات:

كما كانت للمأمون جولة في العلوم الدينية كانت له جولة في العلوم الصناعية وقد كان أثره

في هذه أظهر من أثره في تلك كما يتبين مما يأتي:

كانت الأمة العربية أمة أمية لا تتعلق بشيء من الصناعات ولا العلوم إلا قليلاً كما بيناه في خلاصة تاريخها في الجزء الأول. فلما جاءها الإسلام لم يكن لها مجال في العلوم لأنها كانت في دور التكوين وذلك محتاج إلى استعمال ما عندها من القوة والفكر في سبيل ذلك فانقضت مدة الخلفاء الراشدين رضي اللّه عنهم في الفتح وتأسيس المملكة وتمهيد طريق الدعوة إلى الدين وكانت الحال كذلك في صدر الدولة الأموية إلا أنه وجد من رجالهم في أوسط أدوارها من عنو ببعض الصناعات التي كانت فيمن سبقهم من الأمم واهتموا بترجمة كتب منها وأول من عرف اسمه في ذلك خالد بن يزيد بن معاوية الذي كان يسمى حكيم آل مروان وكان فاضلاً في نفسه وله همة ومحبة للعلوم خطر بباله الصنعة «الكيمياء» فأمر بإحضار جماعة من فلاسفة اليونانيين ممن كان ينزل مدينة مصر وقد تفصح بالعربية وأمرهم بنقل الكتب في الصنعة من اللسان اليوناني والقبطي إلى العربي وهذا أول نقل كان في الإسلام من لغة إلى لغة. ثم نقل الديوان وكان باللغة الفارسية إلى العربية في أيام الحجاج نقله صالح بن عبد الرحمٰن مولى بني تميم كما قدمنا ذلك في تاريخ بني أمية، ثم نقل ديوان الشامي إلى العربية في زمن هشام بن عبد الملك نقله أبو ثابت سليمان سعد مولى حسين.

وكانت الدولة الأموية أقرب إلى من قبلها في السذاجة الصناعية فلم يكن لترجمة الكتب فيها كبير حظ ولا عظيم أثر. فلما جاءت الدولة العباسية كان اختلاطها بالفرس أكثر لأن دولتهم بالخراسانيين والموالي قامت وهذا الاختلاط جعل نفوس العباسيين تصبو إلى الاطلاع على شيء مما عند الفرس واليونان من آثار متقدميهم من العلماء والحكماء والفلاسفة وكان أول من عنى بترجمة شيء من هذه الكتب أبو جعفر المنصور ثاني خلفاء العباسيين وكان الذي قام بترجمة الكتب له طبيبه جورجس بن جبرائيل الذي كان طبيباً لبيمارستان جنديسابور ثم طلبه المنصور إليه (سنة ١٤٨) ليعالجه فحظي عنده حظوة عظيمة وترجم له كتباً كثيرة من اليوناني إلى العربي. والبطريق قال في طبقات الأطباء: إن المنصور أمره بنقل أشياء من الكتب القديمة وله نقل كثير جيد إلا أنه دون نقل حنين بن إسحاق. وقد وجدت بنقله كتب كثيرة في الطب من كتب أبقراط وجالينوس وترجم له ابن المقفع كتاب كليلة ودمنة من الفهلوية وترجم كتاب السند هند وكتاب المجسطي لبطليموس وكتاب أقليدس في الهندسة وغير ذلك إلا أن العناية لم تبذل كثيراً في الحصول على الكتب المفيدة حتى تترجم وتشغل بها الأمة.

فلما كان في زمن هارون الرشيد وغلب على بعض المدائن الرومية الكبرى كأنقرة وعمورية عثر على كنز ثمين من كتب اليونان فأمر أن تترجم له فترجمت وبذلك كانت حركة الترجمة أقوى

منها في عهد المنصور وكان للبرامكة يد طولى في الترجمة وعون المترجمين عليها بما كانوا يدرونه عليهم من الأرزاق.

لما ولي المأمون كان قد تأثر فكره بما قرأ من هذه الكتب وأحس بنفعها فقوى حركة الترجمة ونشطها تنشيطاً أساسه الاقتناع بالفائدة وساعده الجود والبذل في هذا السبيل حكى ابن النديم في الفهرس أن المأمون رأى في منامه كأن رجلاً أبيض اللون مشرباً حمرة واسع الجبهة مقرون الحاجب، أجلح الرأس أشهل العينين حسن الشمائل جالس على سريره قال المأمون وكأني بين يديه قد ملئت له هيبة فقلت من أنت قال أنا أرسطاطاليس فسررت به وقلت أيها الحكيم أسألك قال سل قلت ما الحسن قال ما حسن في العقل قلت ثم ماذا قال ما حسن في الشرع قلت ثم ماذا قال ما حسن عند الجمهور قلت ثم ماذا قال ثم لا، ثم لا ـ وفي رواية أخرى قلت زدني قال من نصحك في الذهب فليكن عندك كالذهب وعليك بالتوحيد ـ قالوا فكان هذا المنام من أوكد الأسباب في إخراج الكتب ـ وإذا صحت هذه الحكاية فهذه الرؤيا أثر لشغف المأمون بأرسطاطاليس وتعاليمه.

كان بين المأمون وملك الروم مراسلات وقد استظهر عليه المأمون فكتب إلى ملك الروم يسأله الإذن في إنفاذ ما عنده من مختار العلوم القديمة المخزونة المدخرة ببلد الروم فأجاب إلى ذلك بعد امتناع فأخرج المأمون لذلك جماعة منهم الحجاج بن مطر وابن البطريق وسلما صاحب بيت الحكمة وغيرهم فأخذوا مما وجدوا ما اختاروا فلما حملوه إليه أمرهم بنقله وقيل إن يوحنا بن ماسويه ممن نفذ إلى بلاد الروم.

ولم تكن هذه العناية قاصرة على المأمون وحده بل كان لعهده جماعة ذوو يسار اعتنوا جد العناية بنقل هذه الكتب إلى اللسان العربي ومن هؤلاء محمد وأحمد والحسن بنو شاكر المنجم بذلوا الرغائب وأنفذوا حنين بن إسحاق وغيره إلى بلد الروم فجاءوهم بطرائف الكتب وغرائب المصنفات في الفلسفة والهندسة والموسيقى والأرتماطيقا والطب. قال أبو سليمان المنطقي السجستاني: إن بني المنجم كانوا يرزقون جماعة من النقلة منهم حنين بن إسحاق وحبيش بن الحسن وثابت بن قرة وغيرهم في الشهر نحو ٥٠٠ دينار للنقل والملازمة. وقال ابن النديم في موضع آخر: هؤلاء القوم ممن تناهى في طلب العلوم القديمة وبذل فيها الرغائب وأتعبوا فيها نفوسهم وأنفذوا إلى بلاد الروم من أخرجها إليهم فأحضروا النقلة من الأصقاع والأماكن بالبذل السني وأظهروا عجائب الحكمة وكان الغالب عليهم الهندسة والحيل والحركات والموسيقى والنجوم وهو الأقل وتوفي محمد بن موسى سنة ٩٥ في شهر ربيع الأول. ثم ذكر الكتب التي ألفوها. وقال ابن خلكان: ومما اختصوا به في ملة الإسلام وأخرجوه من القول إلى الفعل وإن كان أرباب الأرصاد المتقدمون على الإسلام قد فعلوه لكنه لم ينقل أن أحداً من أهل الملة تصدى

له وفعله إلا هم وهو أن المأمون كان مغرماً بعلوم الأوائل وتحقيقها ورأى فيها أن دور كرة الأرض ٢٤٠٠٠ ميل كل ثلاثة أميال فرسخ فيكون المجموع ٨٠٠٠ فرسخ بحيث لو وضع طرف حبل على أي نقطة كانت من الأرض وأدرنا الحبل على كرة الأرض حتى انتهينا بالطرف الآخر إلى ذلك الموضع من الأرض التقى طرفا الحبل فإذا مسحنا ذلك الحبل كان طوله ٢٤٠٠٠ ميل فأراد المأمون أن يقف على حقيقة ذلك فسأل بني موسى المذكورين عنه فقالوا نعم هذا قطعي فقال أريد أن تعملوا الطريق الذي ذكره المتقدمون حتى نبصر هل يتحرر ذلك أو لا ـ فسألوا عن الأراضي المتساوية في أي البلاد هي فقيل لهم صحراء سنجار في غاية الاستواء وكذلك وطآ الكوفة فأخذوا معهم جماعة ممن يثق المأمون إلى أقوالهم ويركن إلى معرفتهم بهذه الصناعة وخرجوا إلى سنجار وجاءوا إلى الصحراء المذكورة فوقفوا في موضع منها فأخذوا ارتفاع القطب الشمالي ببعض الآلات وضربوا في ذلك الموضع وتداً وربطوا فيه حبلاً طويلاً ثم مشوا إلى الجهة الشمالية على استواء الأرض من غير انحراف إلى اليمين واليسار حسب الإمكان فلما فرغ الحبل نصبوا في الأرض وتداً آخر وربطوا فيه حبلاً طويلاً ومشوا إلى جهة الشمال أيضاً كفعلهم الأول ولم يزل ذلك دأبهم حتى انتهوا إلى موضع أخذوا فيه ارتفاع القطب المذكور فوجدوه قد زاد على الارتفاع الأول درجة فمسحوا ذلك القدر الذي قدروه من الأرض بالحبال فبلغ ٦١ ½ ميلاً فعلموا أن كل درجة من درج الفلك يقابلها من سطح الأرض ٦٦ ½ ميلاً. عادوا إلى الموضع الذي ضربوا فيه الوتد الأول وشدوا فيه حبلاً وتوجهوا إلى جهة الجنوب ومشوا على الاستقامة وعملوا كما عملوا في جهة الشمال من نصب الأوتاد وشد الحبال حتى فرغت الحبال التي استعملوها في جهة الشمال ثم أخذوا الارتفاع فوجدوا القطب الشمالي قد نقص عن ارتفاعه الأول درجة فصح حسابهم وحققوا ما قصدوا من ذلك ـ وهذا إذا وقف عليه من له يد في علم الهيئة ظهر له حقيقة ذلك ومن المعلوم أن عدد درج الفلك ٣٦٠° لأن الفلك مقسوم باثني عشر برجاً كل برج ٣٠° فتكون الجملة ٣٦٠° فضربوا عدد درج الفلك في ٦٦ ½ ميلاً التي هي حصة كل درجة فكانت الجملة ٢٤٠٠٠ وهي ٨٠٠٠ فرسخ (الميل ١٦٦٦ ½ م والفرسخ ٥٠٠٠ م) وهذا محقق لا شك فيه. فلما عاد بنو موسى إلى المأمون وأخبروه بما صنعوا وكان موافقاً لما رآه في الكتب القديمة من استخراج الأوائل طلب تحقيق ذلك في موضع آخر فسيرهم إلى أرض الكوفة وفعلوا كما فعلوا في سنجار فتوافق الحسابان فعلم المأمون صحة ما حرره القدماء في ذلك. وممن كان ينقل لهم حنين بن إسحاق العبادي وكان فاضلاً في صناعة الطب فصيحاً باللغة اليونانية والسريانية والعربية والفارسية دار البلاد في جميع الكتب القديمة ودخل بلد الروم وأكثر نقوله لبني موسى ونقله في غاية الجودة وكانت وفاته سنة ٢٦٠.

وكان هناك كثير غير بني شاكر يحذون حذوهم ذلك فكثرت الكتب المترجمة في جميع العلوم الصناعية ولما نقلت إلى العربية اشتغل بها الناس كثيراً علماً وعملاً ففسروا مغلقها وأصلحوا خللها ووجد منهم فلاسفة عظام ألفوا كتباً عظيمة في هذه العلوم منهم من صميم العرب يعقوب بن إسحاق الكندي ينتهي نسبه إلى الأشعث بن قيس بن معد يكرب ثم إلى كندة وكان عظيم المنزلة عند المأمون وعند المعتصم وله مصنفات جليلة ورسائل كثيرة جداً في جميع العلوم ونقل في طبقات الأطباء عن سليمان بن حسان أنه كان عالماً بالطب والفلسفة وعلم الحساب والمنطق وتأليف اللحون والهندسة وطبائع الأعداد وعلم النجوم، ولم يكن في الإسلام فيلسوف غيره احتذى في تآليفه حذو أرسطوطاليس وله تآليف كثيرة في فنون العلم وخدم الملوك فباشرهم بالأدب وترجم من كتب الفلسفة الكثير وأوضح منها المشكل ولخص المستصعب وبسط العويص. وقال أبو معشر في كتاب المذكرات لشاذان: حذاق التراجمة في الإسلام أربعة حنين بن إسحاق ويعقوب بن إسحاق الكندي وثابت بن قرة الحراني وعمر بن الفرخان الطبري وقد ذكر فهرس كتبه في نحو خمس صفحات في علوم شتى.

وإنما ذكرنا هذا لندل على أن الأمة كانت في استعداد تام لتلقي هذه الكتب والتصرف فيها والبناء عليها والزيادة فيها فنفقت بسبب ذلك هذه العلوم واشتغل بها المتعلمون في بغداد حاضرة الخلافة وفي غيرها من الحواضر ولم يقفهم عن التقدم كلمات العلماء من أهل الحديث التي كانت توجه إليهم أحياناً خفية لمكان الخليفة منهم فقد كان هو المساعد الأكبر في نفاق هذه العلوم.

فالمأمون يعد في الحقيقة حامل لواء هذه العلوم وسبب تلك الحركة الكبرى التي وجدت في الأمة الإسلامية مع حفظ الفضل لمن سبقه في ذلك كأبيه الرشيد وجده المنصور فإنهما وضعا الأساس وهو حذا حذوهم إلا أنه فاقهم في الاهتمام والعزم.

الأحوال الخارجية:

لم يكن بين المسلمين والروم حروب في أول عهد المأمون إلى (سنة ٢١٥) وفيها وفيها شخص المأمون بنفسه من مدينة السلام لغزو الروم في المحرم (مارس سنة ٨٣٠) واستخلف على المدينة إسحاق بن إبراهيم بن مصعب وسلك طريق الموصل حتى صار إلى منبج ثم دابق ثم أنطاكية ثم المصيصة ومنها خرج إلى طرسوس وهي الثغر الإسلامي ومن طرسوس دخل إلى بلاد الروم في منتصف جمادى الأولى (يوليه سنة ٨٣٠) ففتح حصن قرة عنوة وأمر بهدمه. ولما تم فتحه اشترى السبي بستة وخمسين ألف دينار ثم خلى سبيلهم وأعطاهم ديناراً ديناراً ـ وكان قبل ذلك الفتح حصناً اسمه ماجدة فمنّ على أهله ـ ثم أرسل أشناس إلى حصن سندس فأتاه برأسه ـ ووجه عجيفاً وجعفر الخياط إلى صاحب حصن سنان فسمع وأطاع.

وبعد ذلك شخص إلى الشام وهناك ورد الخبر عليه بأن ملك الروم قتل قوماً من أهل طرسوس والمصيصة عدتهم فيما يقال ٦٦٠٠ فأعاد الكرة على بلاد الروم فنزل على أنطيفوا فخرج أهلها على صلح وصار إلى هرقلة فخرج أهلها على صلح ووجه أخاه إسحاق فافتتح ثلاثين حصناً ووجه يحيى بن أكثم من طوانة فأغار وغنم ورجع إلى العسكر ـ ثم خرج المأمون إلى كيسوم ثم إلى دمشق ومنها خرج إلى مصر في ١٦ ذو الحجة (سنة ٢١٦) ثم عاد منها إلى دمشق (سنة ٢١٧) فدخل أرض الروم ثالث مرة فأناخ على لؤلؤة مائة يوم ثم رحل عنها وخلف عليها عجيفاً فاختدعه أهلها وأسروه فمكث أسيراً في أيديهم ثمانية أيام ثم أخرجوه وسار توفيل إلى لؤلؤة فأحاط بعجيف فصرف المأمون الجنود إليه فارتحل توفيل لموافاتهم وخرج أهل لؤلؤة إلى عجيف بالأمان.

وكاتب ملك الروم المأمون في سفرته هذه وأجابه المأمون على كتابه وهذه نسخة كتابيهما.

كتب ملك الروم إلى المأمون: أما بعد فإن اجتماع المختلفين على حفظهما أولى بهما في الرأي مما عاد بالضرر عليهما ولست حرياً أن تدع لحظ يصل إلى غيرك حظاً تحوزه إلى نفسك وفي علمك كان عن أخبارك وقد كنت كتبت إليك داعياً إلى المسالمة راغباً في فضيلة المهادنة لتضع أوزار الحرب عنا ويكون كل واحد لكل واحد ولياً وحزباً مع اتصال المرافق والفسح في المتاجر وفك المستأسر وأمن الطرق والبيضة فإن أبيت فلا أدب لك في الخمر ولا زخرف لك في القول فإني لخائض إليك غمارها آخذ عليك أسدادها شان عليك خيلها ورجلها وإن أفعل فبعد أن قدمت إليك المعذرة وأقمت بيني وبينك علم الحجة والسلام.

رد المأمون: أما بعد فقد بلغني كتابك فيما سألت من الهدنة ودعوت إليه من الموادعة وخلطت فيه من اللين والشدة مما استعطفت به من فسخ المتاجر واتصال المرافق وفك الأسارى ورفع القتل والقتال فلولا ما رجعت إليه من أعمال التؤدة والأخذ بالحظ في تقليب الفكرة وأن لا أعتقد الرأي في مستقبله إلا في إصلاح ما أوثره في معتقبه لجعلت لجواب كتابك خيلاً تحمل عن أهل البأس والنجدة والبصيرة ينازعونكم عن ثكلكم ويتقربون إلى اللّه بدمائكم ويستقلون في ذات اللّه ما نالهم من ألم شوكتكم ثم أوصل لهم من الأمداد وأبلغ لهم كافياً من العدة والعتاد هم أظمأ إلى موارد المنايا منكم إلى السلامة من مخوف معرتهم عليكم موعدهم إحدى الحنين عاجل غلبة أو كريم منقلب غير أني رأيت أن أتقدم إليك بالموعظة التي يثبت اللّه بها عليك الحجة من الدعاء لك ولمن معك إلى الوحدانية والشريعة الحنيفية فإن أبيت ففدية توجب ذمة وتثبت نظرة وإن تركت ذلك ففي يقين المعاينة لقوتنا ما يغني عن الإبلاغ في القول والإغراق في الصفة والسلام على من اتبع الهدى.

شخص المأمون إلى الرقة سنة ٢١٧ وفي هذه السنة في جمادى (يونية سنة ٨٣٣) سير ابنه

العباس إلى أرض الروم وأمره بنزول الطوابة وبنائها فابتدأ البناء بناها ميلاً في ميل وجعل سورها على ثلاثة فراسخ وجعل لها أربعة أبواب وبنى على كل باب حصناً. ثم سار المأمون بعده إلى بلاد الروم فدخلها من ناحية طرسوس وهناك كانت وفاته كما يأتي.

أخلاق المأمون:

أول ما ظهر من حلى المأمون ميله للعفو وكراهته للانتقام فإنه عفا عن جميع من ساعدوا خصومه عليه ولم يهجهم بشيء حتى الفضل بن الربيع الذي أخذ قواده وسلاحه وجنوده وجميع ما أوصى به أبوه له فذهب به إلى الأمين وتركه بمرو مجرداً عن كل ذلك ثم أفسد عليه أخاه وأغراه على خلعه وكان أشد عليه من كل شيء ومع هذا لم يؤاخذه بجرمه ولما دخل على المأمون وأعلنه المأمون بالعفو سأله الرضا فقال المأمون أجل العفو لا يكون إلا عن رضا وسجد المأمون شكراً للّه تعالى أن ألهمه نعمة العفو عنه وقال الحمد للّه قديماً كنت أسلم عليه فأفرح برده فسبحان الذي ألهمني الصفح عنه فلذلك سجدت قال طاهر بن الحسين فعجبت لسعة حلمه. وقال زيد بن علي بن الحسين جلس المأمون يوماً للغداء وعلى رأسه سعيد الخطيب وهو يذكر مناقبه ويصف سيرته ومجلسه إذ انهملت عين المأمون فلما سئل عن سبب بكائه قال ما ذلك من حدث ولا لمكروه هممت به لأحد ولكنه جنس من أجناس الشكر للّه لعظمته وذكر نعمته التي أتمها علي كما أتمها على أبوتي من قبلي أما ترون ذاك الذي في صحن الدار (يعني الفضل ابن الربيع) كان في أيام الرشيد وحاله حاله يراني بوجه أعرف فيه البغضاء والشنآن وكان له عندي كالذي لي عنده ولكني أداريه خوفاً من سعايته وحذراً من أكاذيبه فكنت إذا سلمت عليه فرد علي أظل لذلك فرحاً وبه مبتهجاً وكان صفوه إلى المخلوع فحمله على أن أغراه بي ودعاه إلى قتلي وحرك الآخر ما يحرك القرابة والرحم الماسة فقال أما القتل فلا أقتله ولكن أجعله بحيث إذا قال لم يطع وإذا دعا لم يجب فكان أحسن حالاتي عنده أن وجه مع علي بن عيسى قيد فضة بعد ما تنازعا في الفضة والحديد ليقيدني به وذهب عنه قول اللّه تعالى: ﴿ذلك ومن عاقب بمثل ما عوقب به ثم بغي عليه لينصرنه اللّه﴾ [1] فذاك موضعه من الدار بأخس مجالسها وأدنى مراتبها (وكان يجلس مع أصحاب الحرس) وهذا الخطيب على رأسي وكان بالأمس يقف على هذا المنبر الذي بإزائي مرة وعلى المنبر الغربي مرة فيزعم أني المأفون ولست بالمأمون ثم هو الساعة يقرظني تقريظه المسيح ومحمداً عليهما السلام.

وكان له في العفو لذة لا يعادلها لذة حتى أنه لما ظفر بعمه إبراهيم عفا عنه مع عظيم جرمه وهذا خلق كاد ينساه التاريخ حتى حازه للمأمون الذي أحس من نفسه بقدرة السلطان فأذهب ذلك

(١) سورة: الحج، الآية: ٦٠.

عنه الحفيظة ولم يؤثر عنه ما يعيبه إلا ما كان منه بمصر حيث أمر بقتل محاربين نزلوا على حكمه مع ضياع قوتهم واقتناعه بعذرهم وهم أهل البشرود بأسفل مصر كانوا ثاروا على عمالهم بسبب سوء سيرتهم فأرسل إليهم الأفشين فأوقع بهم حتى نزلوا على حكم أمير المؤمنين ولما ذهب إليهم المأمون حكم بقتل رجالهم وبيع نسائهم وأطفالهم وذلك في صفر (سنة ٢١٧) وهي حادثة في غاية الغرابة بالنسبة لما عرف من خلق المأمون الذي اشترى سبي الروم بماله وأطلقهم وأعطى كل واحد ديناراً ومنّ على غيرهم من السبي.

ومن مزايا المأمون أنه كان في جدله ميالاً إلى الإقناع فكان يناقش من خالفه حتى يبين له الحجة وله في ذلك مجالس مأثورة مشهورة وله في الجدل حجج قوية ناصعة مع سعة الصدر والاحتمال لما يبدر ممن حضره في المناقشة وكان أصحابه ووزراؤه يدلونه على موضع الخطأ مما يريد أن يفعل. أراد مرة أن ينتقص معاوية بن أبي سفيان ويلعنه فقال له يحيى بن أكثم إن العامة لا تحتمل مثل هذا لا سيما أهل خراسان ولا تأمن أن يكون لهم نفرة وإن كانت لم تدر ما عاقبتها والرأي أن تدع الناس على ما هم عليه ولا تظهر لهم أنك تميل إلى فرقة من الفرق فإن ذلك أصلح في السياسة وأحرى في التدبير فاتبع المأمون نصيحته وطوى الكتاب الذي كان قد أنشىء في هذا المعنى فلم يقرأ على العامة ولكنه بقي في دفاترهم مسجلاً.

كان المأمون مع حلمه يعلم ما عليه رؤساء جنده ورجال دولته فلم يكن بالمغفل الذي ينخدع برياء الناس ونفاقهم وظهورهم بما ليس من شيمهم قال يوماً وفي مجلسه جماعة ما في عسكرنا من يطلب ما عندنا بالرياء فقال كل واحد بما عنده إما أن يقول في عدو يقدح فيه أو يقول بما يعلم أنه يسر خليفته فلما قالوا ذلك قال ما أرى عند أحد منكم ما يبلغ إرادتي ثم أنشأ يحدث عن أهل عسكره أهل الرياء حتى لو كان قد أقام في زحل كل واحد منهم حولاً ما زاد على معرفته فكان مما حفظ عنه إذ قال حين ذكر أهل الرياء وما يعاملون به الناس ـ تسبيح حميد الطوسي وصلاة قحطبة. وصوم النوشجاني. ووضوء بشر المريسي. وبناء مالك بن شاهي المساجد. وبكاء إبراهيم بن بريهة على المنبر. وجمع الحسن بن قريش اليتامى. وقصص منجا وصدقة علي بن الجنيد. وحملان إسحاق بن إبراهيم في السبيل. وصلاة ابن رجاء في الضحى. وجمع علي بن هشام القصاص ـ حتى جمع جماعة كثيرة فقال رجل من عظماء العسكر لآخر بعد أن خرجا من الدار هل رأيت أو سمعت بملك قط أعلم برعيته ولا أشد تنقيراً من هذا الحديث ـ فحدث إبراهيم بن المهدي بهذا الحديث رجلاً من أصحاب الأخبار والعلم فقال له وما تصنع بهذا قد شهدت رسالته إلى إسحاق بن إبراهيم في الفقهاء يخبر بمعايبهم رجلاً رجلاً حتى لهو بها أعلم منهم بما في منازلهم.

قعد مرة للمظالم فقدم إليه أصحاب الحاجات فقضى ما شاء من حاجاتهم وكان فيهم نصراني من أهل كسكر كان قد صاح بالمأمون غير مرة وقعد له في طريقه فلما بصر به المأمون أثبته معرفة فأمر سلماً صاحب الحوائج أن يبطحه ويضربه عشرين درة وقال لسلم قل له لا يعود يصيح بي فقال له سلم ذلك وهو مبطوح فقال الرجل أعود وأعود وأعود حتى تنظر في حاجتي فأبلغه سلم ذلك فقال هذا مظلوم موطن نفسه على القتل أو قضاء حاجته ثم قال لأبي عياد اقض حاجة هذا كائنة ما كانت الساعة فلا أدري مم يعجب الإنسان أمن ملاحظة المأمون وعرفان الرجل لأنه هو الذي صاح به مرة أو مرتين أم من تأميل الرجل فيه بعد أن أمر بضربه أم من رجوع المأمون عن خطئه فبما صنع وأمره بقضاء حاجة الرجل كائنة ما كانت.

وكان مع هذه الأخلاق أديباً يعرف جيد الشعر ورديئه ويثيب على ما أعجبه منه ثواباً فوق كل أمل. حدث عمارة بن عقيل قال: أنشدت المأمون قصيدة فيها مديح له فيها مائة بيت أو أكثر فما ابتدأت بصدر بيت إلا بادرني إلى قافيته فقال عمارة: واللّه يا أمير المؤمنين ما سمعها مني أحد قط فقال المأمون هكذا ينبغي أن يكون وقال عمارة قال لي عبد اللّه بن السمط علمت أن المأمون لا يبصر الشعر فقلت ومن ذا يكون أعلم منه فواللّه إنك لترانا ننشده أول البيت فيسبقنا إلى آخره. قال إني أنشدته بيتاً أجدت فيه فلم أره تحرك له ـ قلت وما الذي أنشدته فقال:

أضحى إمام الهدى المأمون مشتغلاً بالدين والناس بالدنيا مشاغيل

فقلت ما صنعت شيئاً وهل زدت على أن جعلته عجوزاً في محرابها في يدها سبحتها فمن القائم بأمر الدنيا إذا تشاغل عنها وهو المطوق بها هلا قلت فيه كما قال جرير في عبد العزيز بن الوليد:

فلا هو في الدنيا مضيع نصيبه ولا عرض الدنيا عن الدين شاغله

ولعلمه بالشعر ومحبته له راجت في زمنه سوقه وكثر الشعراء والأدباء كما كثر المغنون ونبغوا. وكان المأمون يسمع الغناء ويحب الجيد منه وكان يشرب النبيذ على رأي أهل العراق.

أما كرمه فمما سارت به الأمثال فقد أربى على جميع خلفاء بني العباس حتى على أبيه الذي كان يعطي عطاء من لا يخاف فقراً ولا يخشى إقلالاً وحكايات المأمون في العطاء كثيرة فلا نطيل بذكرها إلا أنا نذكر حادثة تدل على مقدار الترف في القوم وسعة اليد وكثرة البذل.

بنى المأمون (سنة ١٢٠) ببوران بنت الحسن بن سهل في فم الصلح واحتفل أبوها بأمرها وعمل من الولائم والأفراح ما لم يعهد مثله في مصر من الأمصار وانتهى أمره إلى أن نثر على الهاشميين والقواد والكتاب والوجوه بنادق مسك فيها رقاع بأسماء ضياع وأسماء جوار وصفات

دواب وغير ذلك فكانت البندقة إذا وقعت في يد الرجل فتحها وقرأ ما فيها ثم يمضي إلى الوكيل المرصد لذلك فيدفعها إليه ويتسلم ما فيها ثم نثر بعد ذلك على سائر الناس الدنانير والدراهم ونوافج المسك وبيض العنبر وأنفق على المأمون وقواده وجميع أصحابه وسائر من كان معه من أجناده وأتباعه حتى على الجمالين والمكارية والملاحين وكل من ضمه عسكره فلم يكن في العسكر من يشتري شيئاً لنفسه ولا لدوابه تسعة عشر يوماً وكان مبلغ النفقة عليهم خمسين ألف ألف درهم (نحو مليون جنيه) وأمر المأمون له عند انصرافه بعشرة آلاف ألف درهم وأقطعه فم الصلح وأطلق له خراج فارس، وكور الأهواز مدة سنة. وهذا سرف عظيم سهل أمره الموارد الكثيرة.

وفاة المأمون:

بينما كان المأمون ببلاد الروم في آخر غزواته وهو بالبدندون شمالي طرطوس أصابته حمى لم تمهله كثيراً وفي ١٨ رجب (سنة ٢١٨) أدركته منيته فحمل إلى طرطوس ودفن بها وكانت سنه إذ توفي ٤٨ سنة.

ولاية العهد:

عهد المأمون وهو مريض إلى أخيه أبي إسحاق بن الرشيد ولم يخطىء خطأ من قبله بالعهد إلى اثنين وأوصاه بوصية مأثورة تقدم منها أشياء ومما جاء فيها (واعمل في الخلافة إذا طوقكها اللّه عمل المريد للّه الخائف من عقابه وعذابه ولا تغتر باللّه ومهلته فكأن قد نزل بك الموت ولا تغفل أمر الرعية الرعية الرعية العوام العوام فإن الملك بهم وبتعهدك المسلمين والمنفعة لهم اللّه اللّه فيهم وفي غيرهم من المسلمين ولا ينهين إليك أمر فيه صلاح للمسلمين ومنفعة لهم إلا قدمته وآثرته على غيره من هواك وخذ من أقويائهم لضعفائهم ولا تحمل عليهم في شيء وأنصف بعضهم من بعض بالحق بينهم وقربهم وتأنهم وعجل الرسلة عني والقدوم إلى دار ملكك بالعراق وانظر هؤلاء القوم الذين أنت بساحتهم فلا تغفل عنهم في كل وقت).

٨ ـ المعتصم

هو أبو إسحاق محمد بن الرشيد بن المهدي بن المنصور وأمه أم ولد اسمها ماردة ولد (سنة ١٧٩) فبينه وبين أخيه المأمون تسع سنوات وكان في عهد أخيه المأمون والياً على الشام ومصر وكان المأمون يميل إليه لشجاعته فولاه عهده وترك ابنه وفي اليوم الذي توفي فيه المأمون ببلاد الروم بويع له بالخلافة ولقب بالمعتصم باللّه في ١٩ رجب (سنة ٢١٨) (١٠ أغسطس سنة ٨٣٣) ولم يزل خليفة إلى أن توفي بمدينة سامرا في ١٨ ربيع الأول (سنة ٢٢٧) (٤ فبراير